إلى القرآن الكريم

للإمام الأكبر
محمود شلتوت

معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية
في منظمة الاعلام الاسلامي

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

بسم الله الرحمن الرحيم

ALMAS BOOK HOUSE
INVERARITY ROAD,
POST BOX No. 10471

M. Shaltut

إلى القرآن الكريم

للإمام الأكبر
محمود شلتوت

(RECAP)
BP130
.4
.S47
1985

الكتاب: الى القرآن الكريم
المؤلف: الامام الاكبر المرحوم الشيخ محمود شلتوت
الناشر: معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية
في منظمة الاعلام الاسلامي. طهران. ص.ب. ١١٣٦٥/٧٣١٨.
المطبعة: سبهر ــ طهران.
التاريخ: ١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٥ م
عدد النسخ: ٥٠٠٠ نسخة

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>
590682

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقاصد القرآن	١١
سورة الفاتحة	١٥
سورة البقرة	١٧
سورة آل عمران	٣٣
سورة النساء	٣٩
سورة الانعام	٥٣
سورة الاعراف	٦٣
سورة يونس	٧١
سورة هود	٨١
سورة الكهف	٨٩
سورة مريم	٩٥
سورة طه	١٠٣
سورة النمل	١٠٩
سورة القصص	١١٣
سورة العنكبوت	١٢٥
سورة غافر	١٣١
سورة فصلت	١٣٧

سورة الشورى ١٤٥
سورة الملك ١٥١
سورة القلم ١٥٥
سورة الحاقة ١٥٩
سورة المعارج ١٦٣
سورة نوح ١٦٧
سورة الجن ١٧١
سورتا المزمل والمدثر ١٧٥
سورة القيامة ١٧٩

مقدمة الناشر:

انه لمن دواعي السرور أن تنهض منظمة الاعلام الاسلامي بمهمة نشر هذا الأثر الطيب للشيخ العالم الأستاذ محمود شلتوت امام الجامع الازهر ــ في حينه ــ وذلك نشراً للمعارف الاسلامية بين أبناء الجيل، وتقديرا للجهود العلمية والعملية التي قام بها هذا الرجل الدعامة في مجال توحيد المسلمين و خدمة الرسالة الاسلامية بالمؤلفات النافعة القيمة.

هذا وقد جاء العمل على نشر هذا الكتاب بمناسبة انعقاد مؤتمر الفكر الاسلامي في طهران والذي ركز على موضوع «القرآن الكريم».

ولا يفوتنا ان نقول هنا اننا قد نختلف احيانا مع بعض الآراء المطروحة ــ كما في مثل مسألة الشورى ودورها في الحياة الاسلامية ــ إلاّ أن ذلك لايعني التقليل من أهمية هذه الآراء.

فالى القرآن الكريم، والى مطالعة هذا الكتاب ندعو الاخوة الاعزة القرّاء.

معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية

في منظمة الاعلام الاسلامي

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

إلى روح أبي الطاهرة، أقدم أولى محاولاتي لتجميع تراثه الخالد، ذلك التراث الذي كان له أكبر الاثر في بيان ماجاءت به الشريعة الغراء. شارحاً علاقة الإنسان بخالقه وواجبه نحوه وواجبه نحونفسه ومجتمعه، موضحاً المشكلات التي تجابه المجتمع الإسلامي وحكم الشرع فيها ومفسراً للقرآن الكريم تفسيراً جلياً واضحاً خالياً من الاسرائيليات التي كانت عاملاً خطيراً في زعزعة كثير من الناس، وفهم الدين الحنيف فهماً خاطئاً نتيجة لعصور التخلف الفكري والجمود العقلي والتدهور الخلقي الذي أصاب العالم ردحاً من الزمن فأبعد الناس عن جادة الطريق، فوضّح أمامهم السبيل وأنار قلوبهم بنور الإيمان السليم؛ فإلى القرآن الكريم.

عميد

هادي محمود شلتوت

مقاصد القرآن

القرآن الكريم: آخر كتاب أنزله الله هداية للناس اجمعين: «كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد»، «وهذا كتاب انزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون»، «ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا».

ومن هنا كان العمل على ما يقرب للناس معناه، و يفتح لهم باب التفقه فيه، من أهم مايجب على القادة والمرشدين...

وقد رأينا أن نقدم هذه الطريقة التى ترسم الخطوط الاولى للموضوعات التي يتضمنها الربع من القرآن حتى تصبح مقاصده بارزة ومسالك فهمه واضحة، فتأخذ مكانها من القلب، وتتجه النفس الى التوسع فى التفقه والمعرفة. وسنبدأ ــ إن شاء الله ــ من أول القرآن، بحديث نجمل فيه مقاصد القرآن جملة ونشير الى أساليبه التي اتخذها سبيلا للدعوة اليها.

° ° °

ونرجو أن يكون هذا بمثابة منار يهدى الى معرفة ما هو من مهمة القرآن فيطلب منه، وما ليس من مهمته فلا ننتظره منه، ولا نكره آياته عليه...

وإن نظرة فى القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى: «ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم، و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا» لترينا أن مقاصد القرآن تدور حول نواح ثلاث: ناحية العقيدة، وناحية الأخلاق، وناحية الأحكام.

فالعقائد: تطهر القلب من بذور الشرك والوثنية، وتربطه بمبدأ الروحية

الصافية، وهى تشمل مايجب الايمان به فى جانب الله من صفات الجلال والكمال، وما يجب الايمان به فى جانب الوحى والرسالات من الملائكة والكتب والنبيين، ومايجب الايمان به فى حالات اليوم الآخر من البعث والجزاء...

* * *

والأخلاق: تهذب النفس وتزكيها، وترفع من شأن الفرد والجماعة، وتقوى عرى التآخى والتعاون بين بني الانسان، وتشمل: الصدق، والصبر، والوفاء بالعهد، والحلم، والجود، والرحمة، وغيرها مما يحقق في الانسان ثمرة إيمانه بالله وصفاته التى يجب أن يكون عليها عباده.

* * *

أما الأحكام: فهي ما بيّنها الله في كتابه، أوبيّن أصوله من النظم التي يجب اتباعها، فى تنظيم علاقة الانسان بربه، وعلاقته بأخيه الانسان، وتشمل: أحكام الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، واليمين، والنذر، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة العبادات التى تغذى الايمان. وتنمى ثمراته الطيبة. وتشمل: أحكام الزواج، والطلاق، وما يتبعها من مهر ونفقة، ورضاعة ونسب، وعدة، ووصية، وإرث، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة الاحوال الشخصية، أو أحكام الأسرة. وتشمل: أحكام البيع، والاجارة، والرهن، والمداينة، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة المعاملات المالية. وتشمل: أحكام الجنايات، والجرائم، كالقتل، والسرقة، والافساد فى الأرض، والزنى، والقذف، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة العقوبات، وتشمل: أحكام الحرب والسلم وما يتبعها من غنائم وأسرى، ومعاهدات، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة الأحكام الدولية العامة.

مصادر التشريع الاسلامى

وقد عرض بعد هذا كله لمصادر التشريع، وبين أنها الكتاب والسنة، واجتهاد أولى الرأى، أرباب العلم بالمصلحة فى نواحى الحياة.

كما عرض لأساس الحكومة فى الاسلام وهى الشورى، وجعلها من أخص أوصاف المؤمنين.

أساليب الدعوة

هذه هى الخطوط الاصلية لمقاصد القرآن الكريم.. أما الأساليب التي اتخذها سبيلا للدعوة الى تلك المقاصد فهى:

أولا: الارشاد الى النظر والتدبر فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شىء، لتعرف أسرار الله فى كونه، وابداعه فى خلقه، و بذلك تمتلىء القلوب ايمانا بوجوده وعظمته عن نظر واقتناع لا عن تقليد وابتداع. وبهذا السبيل كرم الله العقل، وفتح له باب البحث عن خواص الأجسام وأسرار الكائنات فى الأرض، والسماء، والماء، والهواء، كى ينتفع بها فى حياته، و يستخدمها فى التعمير والانشاء.

° ° °

ثانيا: قصص الأولين، أفرادا وأمماً، الصالحين منهم والمفسدين، وقد أورد القرآن فى ذلك كثيرا مما يثير العظة والاعتبار، و يرشد الى سنن الله فى معاملة عباده، وهذا هو مقصد القرآن من ذكر قصص الماضين.. فلم يذكره على أنه يحدد الزمان والمكان والأشخاص، و يرتب الوقائع و يبين الأسباب والنتائج، ولم يذكره على أنه أساطير تتحدث عن الغرائب والأعاجيب التى يسمر بها الناس فى النوادى والمجتمعات.

° ° °

ثالثا: ايقاظ الشعور الباطنى فى الانسان فيندفع الانسان بوحى هذا الشعور الى التساؤل عن مبدئه، وعن مادته وعن حياته، وعن مآله ومصيره، حتى يصل الى الاعتراف بخالق القوى والقدر، واضع الأسباب والمسببات، رب الأرض والسموات، مدبر الأمر ومصرفه، وتلك هى الفطرة التى ذكرها الله بقوله تعالى: «فطرة الله التى فطر الناس عليها».

° ° °

رابعا: أما الأسلوب الرابع الذى اتخذه القرآن فى الدعوة الى مقاصده، فهو: أسلوب الانذار والتبشير، أو الوعد والوعيد، وللقرآن في ذلك طريقان:

أحدهما: الوعد والوعيد عن طريق الحياة الدنيا: يعد المؤمنين الصالحين بعموم السلطان والتمكين فى الأرض. و ينذر الجاحدين المفسدين بتقلص العز وانتزاع الملك، وتسليط الأعداء.

وثانيها: الترغيب بنعيم الآخرة الدائم الذى لا ينقطع، الصافى الذى لا يشوبه كدر. والترهيب من الكفر والإفساد فى الأرض والطغيان على عبادالله بعذابها الدائم المهين.

* * *

هذه مقاصد القرآن الكريم، وتلك أساليبه فى الدعوة..

فعلينا أن نتجه الى القرآن فنرتل آياته، أو نسمعها، ونستخلص أحكامه، ونعرف أغراضه.. وعسى أن نجد فى هذا ما يقرب لنا الأمر، و يسهل علينا التفقه بالقرآن، فنعمل به فى خاصة أنفسنا، وأهلينا، ومواطنينا، و بذلك نحصل على رضاء الله واسعاده فى الدنيا والآخرة..

«والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة انا لا نضيع أجر المصلحين».

محمود شلتوت

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة، وتسمى أم الكتاب، هى احدى سور خمس فى القرآن الكريم بدئت باثبات الحمدلله[1].

• وقد اجملت الفاتحة كل ما فصل فى القرآن الكريم من اثبات التوحيد والبعث، و بيان الطريق المستقيم الذى يسلكه الانسان فى تنظيم حياته مع ربه ومع نفسه، ومع الناس: فالجملتان: «الحمدلله رب العالمين»، «الرحمن الرحيم» تثبتان توحيد الله فى الخلق والتربية عن طريق الرحمة الواصل أثرها الى عباده. والجملة الثالثة: «مالك يوم الدين» تثبت النشأة الآخرة التي يقع فيها الجزاء على الاعمال. والجملتان، «اياك نعبد، واياك نستعين» تقرران مبدأ عبادة الله وحده ومبدأ عجز الانسان واحتياجه الى معونة ربه، وتقطعان عليه سبيل التوجه لغير الله بالعبادة والاستعانة .

وجملة «اهدنا الصراط المستقيم» توجه الانسان الى طلب الأحكام التى ينظم بها شأنه من الله سبحانه وتعالى فهو المعلم، وهو المشرع، وهو الموفق للعمل بما يعلم وبما يشرع.

الناس أمام شرع الله

وجملة «صراط الذين أنعمت عليهم» ترشد الى أن الناس أمام شرع الله وطريقه فرق ثلاثة: فريق عرفوا بالتزام الصراط المستقيم حتى أضيف اليهم،

---

١ ــ وهى : الفاتحة، الانعام، الكهف، سبأ، فاطر.

• فى تفسير الاجزاء العشرة الأولى للقرآن الكريم ــ راجع كتابنا: تفسير القرآن الكريم، الجزء الأول.

وعرف بهم،وكانوا فيه قدوة لغيرهم، وهم «المنعَمُ عليهم» وفريق جحدوا صراط الله وأحكامه عنادا واستكبارا وهم «المغضوب عليهم»، وفريق متردد بين الظهور بالايمان و بين استبطان الكفر وهم «الضالون».

° ° °

و بذلك استوفت سورة الفاتحة العقيدة فى المبدأ والمعاد، وبها كمال الانسان من الجانب العلمى، واستوفت طريق العمل الصالح، و به كمال الانسان من الجانب العملى، وأشارت الى تاريخ البشرية الفاضلة فى التزام الحق علما وعملا، والى تاريخ البشرية الفاسقة فى التنكب عن العلم والعمل، وهذا اجمال كل ما فصل فى القرآن الكريم، ومن هنا كانت الفاتحة مقدمة الكتاب، وأم الكتاب.

سورة البقرة

الربع الأول:

* سورة البقرة هى أطول سورة فى القرآن، وأول سورة مدنية فيه، وقد اشتملت على بيان طوائف الناس بالنسبة للانتفاع بالقرآن وعدم الانتفاع به، وتوجيه الخطاب الى الناس عامة بعناصر الدين، والتنبيه الى بعض ادلة التوحيد فى النفس والآفاق، والتذكير بمكانة الانسان التى أعد لها فى هذه الحياة .

طوائف الناس أمام القرآن

بدأت السورة فنوهت بشأن القرآن الكريم، وأنه حق لا ريب فيه، وأن الذين ينتفعون به إنما هم «المتقون» الذين سلمت فطرهم من تسلط المادة المظلمة، والعصبية الغاشمة، فآمنوا بالله واليوم الآخر، وعرفوا حق الله فأقاموا الصلاة، وحق عباده فأنفقوا فى سبيله «ومما رزقناهم ينفقون» وعرفوا أن رسالته فى جميع الازمان واحدة، فآمنوا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وما أنزل من قبل: «أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون».

ثم تقابل هؤلاء بطائفة ثانية تبجحت بالعناد، وتحكمت فيهم النشأة الضالة، حتى انسدت عليهم طرق الهداية وصاروا لايرجى منهم خير ولا ايمان، وهؤلاء هم الذين أيأس الله من ايمانهم نبيه، وقال فيهم: «سواء عليهم أأنذرتهم أم

---

* يشتمل القرآن على ثلاثين جزءا. وكل جزء يحتوى على أرباع والربع هنا من أول سورة البقرة الى نهاية الآية ٢٥.

لم تنذرهم لا يؤمنون، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم».

ثم ذكرت السورة طائفة ثالثة، هى شر ما ابتلى به الحق وأهله فى هذه الحياة وهم المنافقون!.. أنكرت قلوبهم كالكافرين، ونافقوا، وقابلوا المؤمنين بوجه والكافرين بوجه. وقد تحدث الله عنهم فى الربع الأول بثلاث عشرة آية، أظهر دخيلتهم وأغراضهم، ومرض قلوبهم، وذبذبتهم بين هؤلاء وهؤلاء: «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين». ثم زادهم توضيحا فضرب لحيرتهم مثلين: مثل من أضاءت حوله النار ثم انطفأت عليه، وتركته فى ظلمة لا يهتدى فيها الى صواب.. ومثل من أخذته السماء، بمطرها وظلمتها ورعدها وبرقها، فأخذ يتحين الخلاص مضطربا فى شأنه، خائفا من الهلاك، ولو شاء الله لذهب بسمعه وبصره، ان الله على كل شيء قدير.

واخيراً يوجه الخطاب الى الناس عامة، فيطلب منهم عبادة الله وتوحيده، والايمان برسالة محمد، ويقرر الجزاء، وفي سبيل ذلك يلفت نظرهم الى نعمته عليهم بالتربية والخلق، وبتسخير الأرض ومنافعها، والسماء ومائها فى الحصول على الرزق والثمرات، ويتحداهم أن يأتوا بمثل القرآن وهم أهل الكلام، ثم يحذرهم ان التى لم يفعلوا ولن يفعلوا — النار وقودها الناس والحجارة.

وهنا يأتي الأمر بتبشير المؤمنين بأن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، جمعت لذائذ المادة والروح، وهم فيها خالدون.

الربع الثانى:

ضرب الأمثال فى القرآن

٥من سنة الله في القرآن أن يستخدم فى البيان ضرب الأمثال تقريبا لما يجب أن تنفعل به النفوس، وتؤمن به القلوب.. فضرب مثلين للمنافقين وضرب الشجرة الطيبة مثلا للكلمة الطيبة.. وضرب الذبابة والعنكبوت مثلا للشفعاء

٥ من الآية ٢٦ الى نهاية الآية ٤٣ من سورة البقرة.

والأولياء الذين اتخذهم المشركون معبودات ليقربوهم الى الله .

وقد جاء هذا الربع يقرر أن الله لا يمتنع من ضرب الأمثال بما يوضح و يبين، دون نظر الى قيمة الممثل به فى ذاته أو عند الناس: «ان الله لايستحيى أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها».

أما الناس فهم أمام هذه الأمثال فريقان: فريق يفهم القصد الذى ترمى اليه، و يكون لها أثرها الحسن فى نفوسهم.. وفريق يتعلق باسم الحيوان الذى ضرب به المثل: ولا ينظر الى المعنى المقصود، فيتساءل متعجبا، مستهزئا، منكرا، ماذا أراد الله بهذا مثلا؟!.. و يتخذ ذلك سبيلا لايقاع الشك فى قلوب الناس، وهذا شأن الفاسقين الذين خرجوا بأنفسهم عن هداية الله فى خلقه، وأساليب البيان التي طبع عليها كل لسان، هؤلاء الذين كان من خروجهم عن هداية الله، نقض عهد التوحيد والهداية، وقطع ما أمر الله به أن يوصل من رسالته المتتابعة، والافساد فى الأرض، يسجل الله عليهم الخسران فيقول: «أولئك هم الخاسرون». ثم يتعجب من كفرهم واستمرارهم على هذا الفسوق مع وضوح دلائل التوحيد والايمان فى أنفسهم: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم، ثم يميتكم ثم يحييكم، ثم اليه ترجعون»، وفى الآفاق: «هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم».

الحكمة فى خلق الانسان

ثم يذكر الناس بما اقتضته حكمته في خلق النوع الانسانى، مزودا بقوى العقل والادراك ، وقوى العمل في هذه الحياة: «واذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة».. ثم بما كان من الملائكة في الاستفسار عن الحكمة فى خلق هذا النوع، وهو ــ على ما يعلمون ــ ذو شهوة وغضب، بهما يفسد في الأرض، و يسفك الدماء. وعندئذ صور لهم قدرة الانسان ــ بما ركب فيه ــ على معرفة خصائص الأشياء، وطلب منهم الاخبار بها، فظهر عجزهم عما يقدر عليه الانسان، فعلموا أنهم لايستطيعون الخلافة فى الأرض والتى اختير لها ذلك النوع القدير على معرفة هذه الخصائص والانتفاع بها، فآمنوا بحكمة الله، وانقادوا لأمره سبحانه في تعظيم آدم وسجدوا كما أمروا: «واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر». نفس شريرة، عتت عن أمر ربها، وكانت من الكافرين،

ومنح الله آدم منزلة التكريم، وجعل له زوجا من نفسه يسكن اليها، ومكنهما من متعة المودة، ثم اختبرهما ــ لحكمته البالغة ــ بالنهى عن الأكل من شجرة معينة، ولكن الشيطان الذى أبى أن يسجد وقف لآدم بالمرصاد، ومازال يغريه وزوجه حتى زلا ووقعا فى المخالفة، وعندئذ أنزلا حيث التكليف، وحيث العمل، وحيث المنازعات والمنافسات: «وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين». وعندئذ أدرك آدم خطيئته، فتلقى من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم، وقرر له ولذريته نظام حياتهم، وطرق سعادتهم وشقائهم: «فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

حاجة الانسان الى الوحي

وعبرتنا من هذه القصة، ان الله خلق الانسان وجعله مستعدا للعلم والانتفاع بما خلق الله فى الكون ليكون خليفة فى الارض، يعمرها و ينميها. و يكون بعمله مظهرا لرحمة الله بعباده. وليخلق فيه روح المكافحة، خلقه مستعدا أيضا للتأثر بداعية الخير، وداعية الشر، و بين له ان عاقبة التأثر بداعية الخير السعادة المطلقة، وعاقبة التأثر بداعية الشر الشقاء المطلق. و بذلك كان الانسان فى حاجة الى الوحى الالهى يقيه ويحفظه من دواعى الشر، وعلى هذا المبدأ أرسل اليه الرسل، وأنزل الكتب تذكيرا بما يسعده، وتنفيرا مما يشقيه، فيجب علينا أن نتعرف أنفسنا بغرائزها. وأن نحصنها بهداية الله من كيد الشيطان، وأن نلتزم ارشاد الله وأحكامه حتى نفوز برضاه، ونحصل على اسعاده.

دعوة الرسول

سورة البقرة نزلت بعد أن هاجر المسلمون الى المدينة، وصارت لهم بالهجرة وحدة خاصة، وجوار ممن أوتوا الكتاب من قبل.. وقد كان من المرتقب أن يلبى هذا الجوار الجديد دعوة النبى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل، وكانوا يطلبون به قبل مجيئه النصرة على أعدائهم، ولكن خاب الفأل وضاع المرتقب، وحملهم الحسد والبغى على الاعراض والتكذيب والانكار، فتحدثت

السورة عنهم فى أربع وثمانين آية، بدأها الله وختمها بندائهم ونسبتهم الى أبيهم، يستحثهم على الايمان، و يذكرهم بنعمته عليهم: «يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وايای فارهبون، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وايای فاتقون، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين».

الربع الثالث:

انحراف رؤساء بنى اسرائيل

٥ ثم بدأ يبكت الرؤساء ــ الذين يتلون الكتاب، ونصبوا أنفسهم لتعليم الناس أحكامه ــ على أنهم يتركون أنفسهم للشهوات والأهواء دون تزكية ولا تطهير مع أنهم فى الوقت نفسه يأمرون الناس بالبر والخير، ويحكمون لهم بالهدى والايمان، أو يحكمون عليهم بالضلال والكفر، و يرشدهم الى الطريق الذى يقودهم الى الخير فى أنفسهم وفى جماعتهم «واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين، الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون» .

ثم يعود فيذكرهم مرة أخرى بالنعم التى أنعم بها عليهم فى شخص أسلافهم ويحذرهم يوم العدل والقصاص: «واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل، ولا هم ينصرون».

تذكيرهم بنعم الله

ثم يأخذ بهم الى الماضى فيذكرهم بتنجية أسلافهم من فرعون، وقد كان يذيقهم سوء العذاب، يذبح أبناءهم و يترك نساءهم، و يذكرهم بأن انجاءهم كان باسلوب إلهى لا قدرة للانسان عليه، ولا سبيل له فى الاهتداء اليه: كأن يفلق البحر وتهيئة طريق لهم فيه حتى اذا ما جاوزوا البحر ونجا جميعهم، وأتبعهم

٥ من الآية ٤٤ الى نهاية الآية ٥٩ من سورة البقرة.

فرعون وجنوده، أطبق البحر على فرعون وقومه وغشيهم من اليم ما غشيهم، وأضل فرعون قومه وما هدى: «وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون». نعمة مزدوجة، فضل وقدرة، أنجاهم وأهلك عدوهم.

و يذكرهم بعفوه عنهم حينما عبدوا العجل فى غيبة موسى، و يذكرهم بنعمة انزال التوراة التى بها يعرفون الحلال والحرام، و يفرقون بين الحق والباطل. و يذكرهم بعلاجهم من أثر الصاعقة التى أخذتهم حينما تمردوا، وقالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة: «ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون».

و يذكرهم بنعمته عليهم حينما جبنوا عن دخول الأرض المقدسة، وقالوا: «إن فيها قوما جبارين»، فقضى عليهم بالبقاء فى الصحراء، تائهين أربعين سنة، تأديبا واعدادا لذرية صالحة منهم. يذكرهم وهم فى ذلك التأديب بنعمة تظليلهم بالغمام، يقيهم وهج الشمس، وشدة البرد، ونعمة انزال المن والسلوى، ابقاءً لهم، ورحمة بهم: «كلوا من طيبات ما رزقناكم».

و يذكرهم بما كان منهم بعد أن خرجوا من التيه، و بعد أن رأوا نعمة الله عليهم فيه: ذكرهم بتمكينه إياهم من دخول الأرض المقدسة، والتمتع بخيراتها، و يأمرهم بالشكر على النعم، وتقدير الفضل والرحمة، والاعتراف بالذنب. ولكنهم مع هذا كله يبدلون قولا غير الذى قيل لهم: يستمرئون العصيان، و ينغمسون فى الطغيان، فينزل عليهم العذاب: «رجزا من السماء بما كانوا يفسقون» وهكذا سنة الله فيمن يكفر بنعمه فلا يستمع لواجب الشكر، ولا يقوم بحق العبودية، و ينزل فى أفعاله وسلوكه على حكم الشهوة والهوى.

الربع الرابع:

نزق وطغيان

* والحديث فيه لايزال مع بنى اسرائيل، يذكرهم بالنعم على أسلافهم فضلا ورحمة و بالنقم عظة وتأديبا: أقاموا فى صحراء التيه وانقطع عنهم الماء،

* من الآية ٦٠ الى نهاية الآية ٧٤ من سورة البقرة.

فطلب لهم موسى السقيا من ربه، فيأمره أن يضرب الحجر بعصاه، فتتفجر منه عيون الماء، فيأكلون و يشربون، و يأخذ الله عليهم العهد بأن لايفسدوا فى الأرض.

يذكرهم الله بهذه النعمة، و يذكرهم بتمردهم فى طلب الماديات، كما تمردوا بطلب رؤية الله من قبل: «لن نصبر على طعام واحد». نزق وطغيان فهم يعلمون أنهم فى صحراء لا ماء ولا زرع، ولا تنبت شيئا مما يطلبون، ولكنه العناد والتمرد، يذهب بصاحبه فى الضلال كل مذهب، و يطلب به الأدنى بدل الأعلى: «أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير؟»، ومع هذا فلكم ما سألتم: أخرجوا من التيه وادخلوا مصراً، تنبت لكم ارضها ماطلبتم، وقوموا بحق الله، وآستمعوا لأنبيائه ولكنهم يصرون على طريقتهم، و يقتلون النبيين بغير الحق، و يعصون أوامر الله، و يعتدون على الحقوق والحرمات، ولا يزالون كذلك حتى يضرب الله عليهم الذلة والمسكنة، يبوءوا بغضبه ونكاله «ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون».

ايمان وعمل

و بعد ذلك ترشد الآيات الى ان أساس النجاح والخسران ليس فى النسبة الى رسول ما، دون الأخذ بأحكامه وارشاداته، وانما هو فى صدق الايمان بالله واليوم الآخر، والعمل الصالح، فمن يؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، و يعمل صالحا «فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون». وفى هذا ارشاد الى أن القيم الرفيعة لا تحفظ عند الله بالأحساب ولا بالأنساب، وانما تحفظ بمعان فاضلة تملأ القلب وتظهر آثارها الطيبة فى الحياة.

عود الى التذكير بالنعم

ثم تعود الآيات الى تعداد النعم، فتذكرهم بأخذ الميثاق عليهم أن يعملوا بالتوراة وأن يأخذوا أحكامها بقوة، وأن يتجهوا الى اصلاح أنفسهم بها لعلهم يتقون..

وتذكرهم بآية من آيات الله، كان جديرا بهم أن يعتبروا بها، وأن يعلموا أن القادر عليها قادر على أن يقلبها عليهم، فيصبحوا بها جاثمين، ولكنهم ظلوا بعدها

على شأنهم فى العناد والمكابرة، ومع هذا فقد امتدت اليهم رحمة الله، وعاملهم بفضله واحسانه، ولم يشأ أن يأخذهم بآياته: «فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين». ثم تذكرهم بما كان من بعض أسلافهم حينما أمرهم الله أن يتفرغوا فى يوم السبت لعبادته فعصوا، محتالين بطريقة عجيبة وهى أن يحجزوا السمك يوم السبت فى حظائر و يتركوه فيها ليأخذوه فى اليوم الذى بعده، فضرب الله عليهم الحرى وسلبهم خصائص الانسانية الفاضلة، وملأ قلوبهم بالطمع والشره، شأن القردة، وكانت تلك عقوبة ظاهرة فيهم، وفى أسلافهم من بعد: «ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين، فجعلناها نكالا لما بين يديها و ما خلفها وموعظة للمتقين»

ثم تذكرهم الآيات بموقف من مواقف العناد التي وقفها آباؤهم من قبل، وكانت سببا فى التشديد عليهم: تقع فيما بينهم حادثة قتل لا يعرف فيها القاتل، ويختلفون على أنفسهم فيه، فيلتجئون الى موسى و يطالبونه بمعرفته، فيأمرهم بناءً على ارشاد ربه أن يذبحوا بقرة، فيقابلون الأمر بالاستهزاء و يسألون عنها: فى سنها، فى لونها، فى شأنها كله، حتى ضيقوا على أنفسهم، ولم يعثروا عليها الا بعد شدة، فتذبح البقرة و يضرب القتيل بجزء منها، فيحيا ويخبر بقاتله، ومع هذه الآية الواضحة القوية تظل قلوبهم قاسية، فهى كالحجارة أو أشد قسوة: «وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون».

الربع الخامس:

عناد ونفاق

٥ وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يطمعون فى انهم يسارعون الى الايمان به وذلك نظرا الى أنهم اهل دين سماوى أصوله هى أصول رسالته وكتابهم يبشر به و يذكر أوصافه، ولكن الله يعلم منهم خلاف ذلك، فهم سلالة

٥ من الآية ٧٥ الى نهاية الآية ٩١ من سورة البقرة.

هؤلاء الذين احتفظ لهم التاريخ بكثير من المساوئ الدينية، ومواقف العناد والمكابرة لرسلهم، ولم يعملوا على تطهير أنفسهم مما كان عليه الاسلاف، وقد قص الله على نبيه فيما سبق كثيرا من مساوئهم، كما قص عليه كثيرا من النعم التى كان يعالجهم بها، المرة بعد الأخرى، وفى هذا وجه الخطاب الى النبى وأصحابه باستبعاد ايمانهم، وبأنهم على عكس ما يطمعون. وأخذ يلفت الأنظار الى أنهم فى الانحراف عن الحق يشقون طريق أسلافهم، ويسيرون على منهجهم، فمنهم فريق يسمع كلام الله ويفهمه على وجهه الصحيح، ثم يحرفه ويصرفه الى غير وجهته ومنهم فريق ينافق المؤمنين فيظهر لهم الايمان، ويذكر ما يجده فى التوراة من أوصاف محمد، واذا خلا بعضهم الى بعض تعاتبوا وتلاوموا، وقالوا لبعضهم: «أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون».

ومنهم فريق لا يعلمون التوراة الا تلقفا من أفواه الأحبار والرؤساء على حسب ما أرادوا لها من التحريف والكذب والتدليس. هؤلاء الرؤساء الذين يكتبون الكتاب للناس بأيديهم على حسب أهوائهم، وينشرونه عليهم «ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا».

هذه بعض خلالهم، فكيف تطمعون فى سرعة ايمانهم؟

أكاذيب مردودة

ثم أخذ يتتبع كلماتهم المسمومة التي كانوا يلقونها على مسامع الناس ليشككوهم فى صدق الدعوة، ويصدوهم عن تلبيتها، شأن المبطلين فى محاربة الحق فى كل عصر وفى كل مكان، كانوا يقولون: «نحن أبناء الله وأحباؤه». «ولن تمسنا النار الا أياما معدودة» وكانوا يقولون: «قلوبنا غلف» مقفلة، لا تدرك شيئا مما يقول، ولا تتجه اليه، فيرد الله عليهم بأن تأقيت العذاب أو خلوده لا يعرف الا من جهته سبحانه، فهل أنزل عليكم فيه وحيا، وأخذتم به عليه عهدا: «أم تقولون على الله ما لا تعلمون»؟..

الجزاء من جنس العمل

وليست المسألة عند الله مسألة محاباة بحب أو بنوة، وانما هى ذات مبدأ

عام، وحكم عام، ان تحقق المبدأ تحقق الحكم، وان لم يتحقق المبدأ لم يتحقق الحكم، و بنو اسرائيل وغيرهم فى المبدأ والحكم سواء: «بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون».

هذا هو المبدأ، ونحن اذا جئنا نطبقه على حالتهم، وجدناهم قد أخذ الله عليهم الميثاق أن يعتقدوا الحق، وأن يفعلوا الخير: «واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله و بالوالدين احسانا». كما أخذ عليهم الميثاق ألا يفعلوا الشر ولا يقترفوا المحرم: «واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم». ثم وجدناهم قد نقضوا العهدين، فتولوا عن فعل الخير، وتظاهروا بالاثم والعدوان. واذن فبحكم المبدأ ليس جزاء من يفعل ذلك منهم: «الا خزى فى الحياة الدنيا و يوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون».

ايثار الدنيا سبب البلاء

ثم كشف لهم الغطاء عن سبب هذه المخالفة الكامن فى نفوسهم، وأنه هو ايثارهم الحياة الدنيا و زخارفها على الآخرة، واهمالهم بذلك تعاليم أنبيائهم الذين أرسلوا اليهم واحدا بعد الآخر يدعونهم الى الهدى والحق فلم يحفلوا بهم، واستكبروا عن اتباعهم: «ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون». أما قولهم: «قلوبنا غلف» فواقع الأمر ان الله لم يخلق القلوب غلفا مقفلة، وانما خلقها مستعدة لقبول الحق، وهم بكفرهم، وضعوا عليها الغلاف والقفل: «بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون»، وها هم أولاء يعلمون أن نبيا سيبعث، مصدقا لما معهم، وكانوا يطلبون به الفتح على أعدائهم قبل مجيئه: «فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به» وضعوا الغلاف على قلوبهم، و باعوا أنفسهم بالشهوات والأهواء، وكفروا بالله ورسوله، لا نزولا على حجة، وانما بغيا وحسدا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده: «فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين»..

وكان من كلماتهم التى يبررون بها عدم ايمانهم، اذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قولهم: «نؤمن بما أنزل علينا» فهو الذى نثق بأنه من عند الله ولا شأن لنا بغيره، فيرد الله عليهم: بأن القرآن الذى يطلب منهم الايمان به، هو «الحق» الذى

تنشده الفطرة، و يشهد بصحته الوجدان، وهو مصدق لما أنزل عليهم، فاذا كفروا به فقد كفروا بما أنزل عليهم. ثم كيف يقبل منهم أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم، وقد قتلوا أنبياء الله الذين بلغوهم اياه؟! وكيف يقبل منهم وقد حفظ لهم التاريخ أنهم عبدوا العجل فى غيبة موسى بعد أن جاءهم بالبينات، وأنهم قالوا حينما أخذ عليهم الميثاق بما نزل عليهم: «سمعنا وعصينا»؟ أهذا ايمانهم بما أنزل عليهم؟! «قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين».

الربع السادس:

مزاعم باطلة

٥والحديث فيه لايزال فى شأن بنى اسرائيل المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم، ومناقشة كلماتهم التى كانوا يسممون بها جو الدعوة، و يلبسون بها على الناس. وقد كان فيها قولهم: «نؤمن بما أنزل علينا»، ومعناه انهم لا يؤمنون بما سواه. فرد الله عليهم بأن القرآن الذى يطلب منهم أن يؤمنوا به هو الحق، وأنه مصدق لما أنزل عليهم، فكيف يزعمون انهم يؤمنون بما أنزل عليهم؟! وكيف يصدقون فى هذا وقد قتلوا أنبياءهم من قبل، وحفظ لهم التاريخ أنهم عبدوا العجل فى غيبة موسى؟ «ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون». ثم يختم الرد عليهم بقوله: «قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين» .

ثم يرد عليهم مزاعم أخرى باطلة، كانوا يقولون: ان الدار الآخرة خالصة لنا لا ينال نعيمها أحد سوانا، فقيل لهم اذن: «فتمنوا الموت ان كنتم صادقين». ثم يتحداهم بما لا يعجزون عنه. و يستخرج السبب الواقعى الذى تنطوى عليه قلوبهم من حب الدنيا و شدة الحرص عليها: «ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم». «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا». ثم يكشف عن واقع أمرهم «يود أحدهم لو يعمر الف سنة» خوفا من العذاب الذى يلاقونه، ولكن

٥ من الآية: ٩٢ الى نهاية الآية ١٠٥ من سورة البقرة.

ليعلموا أن التعمير فى الدنيا مهما طال أمده، لايبعدهم عن عذاب الله، فهو لاحق بهم لا محالة، ولكل بداية نهاية، ولكل أجل كتاب: «والله بصير بما يعملون».

ثم كان من كلماتهم فى عدم الايمان بمحمد قولهم: ان الذى ينزل عليه بالوحى هو جبريل، وأن جبريل بينه و بينهم عداوة، وقد رد الله عليهم بأن جبريل ما هو الا رسول، نزله باذنه على قلب محمد، و بأن ما نزل به جبريل لم يكن مخالفا لما عندهم، بل كان مصدقا له، وكان هاديا ومنقذا من الضلال، واذن فعداوة جبريل، عداوة لمن نزله، وتكذيب منهم لما عندهم، وعداوة للهداية. والعاقل لا يرفض الهداية أيا كان مصدرها..

ثم يوضح الله الحق فى هذا الشأن، وهو أن ما نزل به جبريل أو غيره من الملائكة على محمد، أو على غيره من الأنبياء هو فى حقيقته من الله و بأمر الله، فمن اتخذ أحدا منهم عدوا فقد عادى الله.. ومن عادى الله، عاداه الله. «قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى و بشرى للمؤمنين، من كان عدوا لله وملائكته و رسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين».

الاسلام دين الفطرة

ثم اخذ يطمئن النبى صلى الله عليه وسلم بأن ما أنزل عليه من آيات بينات واضحة لا يكفر بها الا من فسد طبعه، وزاغ عن فطرته. فلا تكترث يا محمد بكفر هؤلاء الذين فسقوا عن أمرنا، وكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم، وهذا شأنهم فى العهود، وهو كشأنهم فيما ينزل مصدقا لما معهم. وتكذيبهم لما يصدق ما معهم تكذيب لما معهم، وبهذا يصيرون كأنه لم ينزل عليهم شيء وكأنهم لا يعلمون.

ما كفر سليمان وماضل الملكان

نبذوا هداية الله قديمها وحديثها، وأخذوا يصرفون الناس عن النظر فى الحقائق بالأوهام والأكاذيب، التى كان يخترعها المردة المفسدون عن ملك سليمان، وعما أعطاه الله للرجلين الصالحين ببابل هاروت وماروت..

كانوا يخترعون أن ملك سليمان أساسه السحر والشعوذة، وأن الملكين عندهما أشد أنواع السحر التى تفرق بين المرء وزوجه، ولمثل هذه الأحاديث شيوع،

فشاعت بين الناس حتى تأثروا بها، واتخذوها ديدنهم فى الحياة، وشغلوا بها حتى صرفتهم عن كل خير وفضيلة. وقد بين الله الحق فيما اختلقوا على سليمان وعلى الملكين، وقرر أن سليمان ما كان ساحرا وما كفر بنعمة ربه، انما كان هاديا و رسولا، وأن الملكين: الرجلين الصالحين ما كانا بمفسدين فى الأرض، ولا بمدلسين على الناس، وانما كانا ناصحين أمينين: «وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر»، ولكن المفسدين أنكروا على سليمان النبوة والملك الالهى، كما أنكروا فضل الله على الرجلين الصالحين فى معرفة خصائص الأشياء وأسرار النفوس، وزعموا أن ما عندهما وما عند سليمان سحر وشعوذة، وبهما بلغا ما بلغا، فاتبعوه على ما رسموا وتخيلوا، وأخذوا ينفثون به فى الروابط البشرية لتحل، والصلات الانسانية لتتقطع: «يفرقون به بين المرء و زوجه»، بين الوالد وولده، بين الأخ وأخيه، بين الصديق وصديقه، و بالتالى بين الرسول وقومه، و بين الناس وهداية الله: «وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله، و يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون».

وعبرتنا من تلك القصة أن نعنى بالحقائق النافعة، ولا نشغل انفسنا بالأوهام والخيالات.

ثم تحذر الآيات المؤمنين مخاطبة النبى ببعض الكلمات التى كان يستغلها المعاندون فى الاستهزاء بالرسول، وتأمرهم بالسمع والطاعة وتتوعد المستهزئين بالعذاب الأليم. ثم ترشد الآيات الى أن عناد الكافرين منشؤه كراهتهم أن ينزل على المؤمنين خير من ربهم، ولكن الله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

الربع السابع:

المعجزة شأن من شؤون الله

* والحديث فيه ايضا لايزال فى بنى اسرائيل، وقد كان من كلماتهم فى

* من الآية ١٠٦ الى نهاية الآية ١٢٣ من سورة البقرة.

التأثير على الناس وصرفهم عن الايمان بمحمد، أنه لم يأت بمعجزة تدل على أنه رسول من عند الله، وكانوا يطلبون معجزات مثل معجزات موسى وعيسى.. وكان العرب مثلهم فى هذا الشأن، فرد الله عليهم بأنه لا يترك معجزة من المعجزات السابقة التى يذكرونها و يطلبون مثلها، أو التى أنساهم اياها فلا يذكرونها، الا أتى لرسوله محمد بمعجزة هى خير من المعجزات السابقة، أو مثلها على الأقل فى الدلالة على صدقه: «ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها».

فالمعجزات شأن من شؤوننا، نختار منها ما نعلم أنه أوفق للمصلحة، وأقدر على الاقناع وأنسب للعصر. ثم أخذ يذكرهم بسؤال أسلافهم لموسى، وحذرهم أن يسألوا محمدا كما سئل موسى من قبل، وأشار الى أن هذا عدول عن الايمان الى الكفر: «ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل». وفى هذا تحذير لضعاف الايمان من المؤمنين أن يسمعوا لكلامهم، أو يسيروا فى طريقهم وقد أرشدهم الى أن هؤلاء المشككين يودون أن ترجعوا كفارا، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، فاحذروا التأثر بهم، ولا يحملنكم بغضهم اياكم أن تعتدوا عليهم: «فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره»، وعليكم بتطهير أنفسكم بالصلاة، وتقوية روابطكم بالزكاة: «وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله».

ثم يعود فيذكر بغرور هؤلاء المكذبين، وزعمهم أنه لن يدخل الجنة الا من كان منهم، و يطالبهم ببرهان ذلك ان كانوا صادقين. و يقرر أن أساس الأجر عند الله هو اسلام الوجه لله والاحسان الى عباد الله: «بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

مسلك مخرب

ثم أخذ يطمئن المؤمنين بأن خطة هؤلاء فى التشكيك والتكذيب والانكار، ليست شأنا خاصا بكم، وانما هى شأنهم حتى فيما بينهم: ينكر بعضهم على بعض، ويجهل بعضهم بعضا، والكتاب بين أيديهم، يزعمون أنهم يؤمنون،

وانهم أرباب الدين الخالد. وبهذه الخطة الفاسدة التى فرقت كلمة الله اعتدى بعضهم على بعض، وتحاربوا حتى خربوا أماكن العبادة، ومنعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وتقام عبادته، وما كان لهم أن يختلفوا فى مثل هذا الشأن، ولا أن يعتدى بعضهم على بعض بسببه، فلله المشرق والمغرب، يعبد فى كل مكان: «فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم» ولم تقف بهم هذه الخطة الفاسدة عند حد الاعتداء عليكم، أو اعتداء بعضهم على بعض، بتخريب أماكن العبادة والتقديس، وانما امتدت أهواؤهم الى الجانب الأقدس، فزعموا أن لله ولدا، وطلبوا أن يكلمهم أو يخصهم بآية من عنده، فيرد عليهم بأن له ما فى السموات والأرض، وبأن كل من فيها قانت له وخاشع، وانه خالقها ومدبرهما، وانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون. واذا كان هذا شأنه فى الملك والتصريف والايجاد، فكيف يكون له ولد ينفصل منه، وينسب اليه بالجزئية التى هى أساس البنوة والأبوة: «لم يلد ولم يولد». يرد عليهم فى طلب مكالمته اياهم بأنه طلب التعنت والاعراض عن الآيات: «كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم، تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون».

توجيه ونصح

ثم وجه الخطاب الى النبي صلى الله عليه وسلم بتأكيد إرساله بالحق بشيرا ونذيرا، وبأنه غيرمسؤول عن كفر من كفر، واعراض من اعرض، وبأن هؤلاء لايرضون عنك حتى تترك ما أنت عليه من رسالة ربك وتتبع ملتهم. ثم تحذر الآيات أتباعه فى شخصه أن يتبعوا أهواءهم، ويتأثروابهم، بعد ما ظهر لهم من العلم والهدى، وتنذرهم اذا هم سلكوا طريقهم بحرمانهم من ولاية الله ونصرته: «مالك من الله من ولى ولا نصير».

هذا شأن الكثرة الساحقة من هؤلاء الذين كنت يا محمد تطمع فى ايمانهم وسرعة تلبيتهم قد بيناه، ومع هذا ففيهم من يرجى خيره، وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته، ويتفهمون حكمه واسراره، فأولئك هم الذين يصح أن تعلق بهم رجاء الايمان، وتطمع فى تلبيتهم دعوتك: «الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته، أولئك يؤمنون به» أما الأكثرون من الرؤساء المعاندين، والمقلدين

الجاهلين، فأولئك هم الخاسرون، الذين لا ينبغى أن تكترث بهم، ولا أن تطمع فى ايمانهم..

ثم تعود الآيات وتستحثهم على الايمان، وتناديهم كما نادتهم أولا بنسبتهم لاسرائيل، نبى الله يعقوب، وتذكرهم بنعمة الله عليهم، وأنه لا يليق بمن كرمه ربه، وفضله بالحكم والنبوة، أن يكون حظه من هداية الله الجحود والانكار. وفى سبيل هذا تنذرهم كما أنذرتهم من قبل باتقاء يوم الحساب والجزاء: «يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين، واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا، ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون»..

سورة آل عمران

الربع التاسع:

أصيب المسلمون فى غزوة أحد بما سجلته سورة «آل عمران» وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيرا من كلمات الشماتة والتخذيل: «لو كان من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا»، «لو نعلم قتالا لا تبعناكم»، «لو أطاعونا ما قتلوا».

جزاء الشهداء

• وقد أرشد الله فى هذا الربع الى جملة من العلاج الذى يحفظ على المسلمين قوتهم المعنوية من التأثر بكلمات الشماتة والتخذيل. وكان مما أرشدوا اليه فيما يختص بقتلى أحد، الذين جادوا بأنفسهم فى سبيل الله، انهم ليسوا — كما يظن هؤلاء — أمواتا توارت أجسامهم، وطويت صفحتهم، وذهبوا الى حيث لا يذكرون، بل لقد ارتقى بهم إيمانهم واستشهادهم الى العندية القدسية، فيها أنوار التجليات، و يتمتعون بما أعد لهم من الفضل الالهى: «فرحين بما آتاهم الله من فضله»، وفرحين بما رأوا من المكانة التى أعدت لاخوانهم الذين تركوهم فى الدنيا، يشقون طريقهم بايمان مثل ايمانهم، وجهاد مثل جهادهم. تركوهم يستجيبون لله وللرسول، غير مكترثين بأراجيف المرجفين، ولا فتن الضالين المكذبين، بل قالوا: حسبنا الله، واتبعوا رضوانه. وما زادتهم الفتن والأراجيف الا ايمانا على ايمان، وقوة على قوة: «الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل».

• من الآية ١٧١ الى نهاية الآية ١٨٥ من سورة آل عمران.

وكان مما أرشدوا اليه فيما يختص بهؤلاء المرجفين، ان ارجافهم ــ وهم الشياطين المفسدون ــ لا يؤثر الا على مثل أتباعهم ضعاف الايمان، فاسدى العقيدة، وليس لهسلطان على المؤمنين الذين يملأ الايمان قلوبهم فيحفظها من التأثر بالأراجيف والفتن، وسينزل بهؤلاء المفسدين الجزاء الذى يستحقون: «انما نملى لهم ليزدادوا اثماولهم عذاب مهين»..

عبر من الهزيمة

وكان مما أرشدوا اليه حكمة الهزيمة التى أصيبوا بها وهي: أن الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة، وليس من شأنه فى ذلك أن يوحى بما فى الضمائر من خبث ونفاق، وانما شأنه وسنته أن يصطفى رسلا يدعون الى الايمان وفى ظل السلم يختلط الكاذب بالصادق، والخبيث بالطيب، فيجرى الله أحداثا و يسوق شدائد، تميز الخبيث من الطيب وتطهر جماعة الايمان الحق، فيوافيهم بالنصر والتأييد: «فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم».

عاقبة البخلاء

وكان مما أرشدوا اليه أن هؤلاء الذين يقبضون عن الانفاق فى سبيل الله، و يبخلون بما آتاهم الله من فضله: «سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة» و يكون حملا ثقيلا فى أعناقهم لا يستطيعون التخلص من تبعاته، وسيرجع ما بأيديهم الى الله الذى له ميراث السموات والأرض، والذى أنعم عليهم به من فضله ليبلوهم أيشكرون أم يكفرون.

وبهذه المناسبة عرضت الآيات للتحقير من شأن كلمات كان يلقيها الاعداء بقصد الحط من مكانة الرسالة وصاحبها عليه الصلاة والسلام: «ان الله فقير ونحن أغنياء»، «ان الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار». وتتوعدهم بالعذاب الأليم، وتأمر الرسول بأن يرد عليهم بقوله: «قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات و بالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين»؟

تسلية

ثم تأخذ فى تسلية الرسول فى تكذيب القوم له، بأن اخوانه السابقين قد كذبتهم أممهم من قبل بعد أن جاءوهم بالبينات، وكان جزاء الرسل لما صبروا النصر والتأييد، وجزاء القوم المكذبين الخزي والدمار. وتلك سنتنامع الأولياء والأعداء، وستنقضى هذه الدنيا وتذهب كل النفوس الى بارئها وتوفى كل نفس ما عملت، و يرى المؤمنون الصادقون ما أعد لهم من نعيم دائم، و يرى الكافرون المكذبون ما أعد لهم من عذاب اليم: «فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الامتاع الغرور»..

الربع العاشر:

اعداد واستعداد

* بعد أن ارشد الله المؤمنين الى حكمة الهزيمة التى أصابتهم فى أحد، لفت أنظارهم الى أن ما أصابهم فى تلك الغزوة ليس آخر ابتلاء يصيبهم من أعدائهم، وأكد لهم انهم سيختبرون فى مستقبل حياتهم بالشدائد فى الأموال والأنفس، بالفعل و بالقول. من فريق المعارضين لهم، وسيرون اذى كثيرا.. فلايظنوا أن الأمر يقف عند حد هذه الغزوات الأولى، فرحلة الجهاد طو يلة، و تضحيات النصر كثيرة، فليوطنوا أنفسهم عليها، و يستعينوا على تحملها بالصبر والتقوى: «لتبلون فى أموا لكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم و من الذين أشركوا أذى كثيرا، وان تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور» .

ثم أخذ يذكرهم بسوء عاقبة أعدائهم بجرائمهم التى اقترفوها وصدوا بها الناس عن الايمان بالحق، فهم قوم نقضوا ميثاق الله، ونبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمنا قليلا، و فرحوا بما ارتكبوا فى جنب الله، وعملوا جهدهم على أن يعتقد الناس فيهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وحملوهم بذلك على أن يعظموهم وأن يسمعوا لدعواتهم فى التأليب ضد الحق الذى يدعو اليه الرسول وصحبه المخلصون:

---

* من الآية ١٨٦ الى آخر سورة آل عمران.

«لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم».

الأمر والتدبير لله وحده

وبعد أن تفرغ الآيات من ارشاد المؤمنين الى ما يجب عليهم من الصبر والتقوى فى مواقف الجهاد والاخلاص فى الدعوة، والى ما سينزل بخصومهم من عاقبة كيدهم وطغيانهم ضد الحق وأهله، تأخذ فى تقرير ربوبية الله، وأنه صاحب الأمر والملك والتدبير فى السموات والأرض، لاشأن لأحد فيها سواه. فهو القادر على الوفاء بما وعد المؤمنين، وما توعد به الكافرين: «ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير».

وجوب النظر فى آيات الله

ثم تأخذ الآيات في فتح أبواب العظة والاعتبار، ودلائل القدرة للذين خلصت قلوبهم من الأهواء والشهوات، وتحكم التقاليد الباطلة: «ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب».

ثم تصف أولى الألباب بصفتين: هما الحبل المتين الذى يصل الانسان بربه ويقيه شر المآثم والطغيان فى هذه الحياة: «الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم» أى يذكرونه بعظمته وجلاله وقدرته فى جميع أوقاتهم؛ وفى جميع شؤونهم، ثم يكون هذا الذكر نتيجة لتدبرهم فى خلق السموات والأرض وما فيها من اتقان وابداع، وعجائب وأسرار، فليس ذكرا ينطلق به اللسان، ولا يدفع اليه الجنان، انما هو ذكر ينبع من القلب الى سماء الرب، فيرفع همة صاحبه فينطلق لسانه بالدعاء وقلبه بين الخوف والرجاء: «ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك» بدوام توفيقك وعنايتك. ثم يذكرون مآل غضبه سبحانه على الذين ظلموا الحق فأنكروا ربوبيته وكفروا برسالته، فيكون دعاؤهم: «ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته، وما للظالمين من أنصار».. ثم يؤكدون تلبيتهم لدعوة الحق التى ارتضاها لعباده على لسان نبيه، ويلتمسون منه المغفرة والانعام عليهم بما وعد المؤمنين المخلصين فيكون قولهم: «ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر

لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد».

° ° °

هذا موقف الذاكرين لربهم، المفكرين فيما خلق و دبر، عرف منهم الصدق فى الايمان والذكر والتفكير والتنزيه: «فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى، بعضكم من بعض» لا تفاضل بينكم الا بالعمل والتقوى، وقيام كل بما طلب منه.

ثم يذكر بعض أسباب النعيم وتكفير السيئات، والمثوبة الدائمة، ويخص أهم ما يطلب من المؤمن وقت ثورة الكفر على الايمان، فيذكر الهجرة والاخراج من الديار، والايذاء فى سبيل الله، والقتال والقتل، ويجعل هذه أبرز دلائل الايمان، وأقرب ما يوصل الانسان الى ثواب الله ورضوانه: «والله عنده حسن الثواب».

تسلية وتوصية

ثم اخذ يسليهم عما كلفوه من مشاق الجهاد، ويحذرهم الاغترار بتقلب الذين كفروا فى البلاد، و يؤكد لهم انه متاع قليل، ثم مأواهم جهنم و بئس المهاد..

أما المؤمنون الذين اتقوا ربهم فأواهم جنات تجرى من تحتها الأنهار.

ثم يرشد ــ احقاقا للحق ــ الى أن من أهل الكتاب، الذين يحاربونكم و يناصبونكم العداء، طائفة تؤمن بالله، وتؤمن بما أنزل اليكم و ما أنزل اليهم، خاشعين لله لا يؤثرون دنياهم الفانية على رضا الله الباقى. و يبين أن هؤلاء لهم أجرهم عند ربهم، وفى هذا اطماع لغيرهم من أهل الكتاب فى أن يعدلوا عن موقفهم من المؤمنين، وأن ينهجوا منهج اخوانهم الخاشعين لله، المحافظين على حدوده.

ثم تختم السورة بهذه الوصية الفذة، التى بها يتحقق الخير كله، وبها يعظم النصر ويحق الجزاء، ويتم الفلاح: «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون».

سورة النساء

الربع الأول:

* سورة النساء أطول سورة مدنية بعد سورة البقرة، وهى سورة مليئة بالأحكام التى ينظم بها المؤمنون شؤونهم الداخلية، والأحكام التى يحفظون بمراعاتها وتنفيذها كيانهم واستقلالهم، و يدفعون بها كيد الكائدين، واغارة المحاربين، وسميت بسورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التى تتعلق بهن، بدرجة لم توجد فى غيرها من السور، ولذلك أطلق عليها «سورة النساء الكبرى» فى مقابلة «سورة النساء الصغرى» التى عرفت فى القرآن بسورة «الطلاق» .

الناس من أصل واحد

وقد افتتحها بنداء الناس كافة، وأمرهم جميعا بتقوى الله، وذكرهم فى سبيل ذلك الأمر بنعمة الخلق والايجاد من نفس واحدة «خلق منها زوجها» وكان منها الناس جميعا رجالا ونساء، و بذلك جمعهم أصل واحد: أبوة واحدة، أمومة واحدة، وربطت بينهم رحم واحدة، هى رحم الانسانية العامة. ثم أعاد الأمر بتقوى الله الذى اليه تفزع القلوب، وتتوثق العلائق، كما أمرهم بتقوى الأرحام التى بينهم والتى ترجع الى أصل واحد، كانت منه الشعوب، والقبائل، والأسر. وقد مهدت بهذا كله للأحكام التى وضعها الله للناس ليحفظ قويهم ضعيفهم.

---

* من أول سورة النساء الى نهاية الآية ١١.

رعاية اليتيم

ومن هنا ذكرت أحكام اليتيم الذى فقد أباه، والسفهاء الذين لا يحسنون التصرف، والنساء اللاتى تنتظمهن ولاية الرجال، ففى اليتامى أمرت بحفظ أموالهم حتى يتسلموها عند رشدهم كاملة غير منقوصة، وحذرت الاحتيال على أكلها عن طريق المبادلة «ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب». أو عن طريق الخلط: «ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم». ووصفت ذلك بأنه اثم كبير. كما أرشدت الى ترك التزوج من اليتامى عند خوف استغلال الحياة الزوجية فى أكل أموالهن، وعدم العدل معهن. وأرشدت الى أن لهم فى غيرهن من النساء متسعا للتزوج منهن، واحدة، ومثنى، وثلاث، ورباع.

وذكرتهم فى هذه الحالة أيضا بالعدل بين النساء حتى اذا لم يأنس الرجل من نفسه القدرة على العدل بين المتعددات من الزوجات، وجب عليه الاقتصار على واحدة، تنزيها لنفسه، واستبراءً لدينه: «ذلك أدنى ألا تعولوا»..

تشريع المهور

وبهذه المناسبة أمرت باعطاء الزوجات مهورهن التى أطلق عليها «نحلة» أى هي ليست أجرا، ولا ثمنا، وانما هى عطاء يوثق المحبة، و يربط القلوب و يديم العشرة.

حفظ أموال اليتامى والسفهاء

وفى جانب السفهاء وهم الصغار الذين لا يعقلون والمجانين والمعاتيه، وكل من لا يحسن التصرف، حذرت دفع الأموال اليهم احتفاظا بها لهم، وابقاءً عليها للأمة، فهى فى الواقع مال الجميع. وأشارت الى تنميتها و استثمارها عن طرق التنمية والاستثمار المشروعة، وجعلت رزقهم وكسوتهم من أرباحها لا من أصولها، كما أمرت بمعالجة السفهاء من السفه بارشادهم الى الحكمة وحسن التصرف وفائدة حفظ الأموال. وأمرت بمثل ذلك فى جانب اليتامى: «وابتلوا اليتامى» أى اختبروهم فى المعاملات حتى يتعودوا البيع والشراء. ثم حددت الوقت الذى تسلم فيه الأموال اليهم وهو وقت الرشد، بعد أن يصلوا الى

سن البلوغ، فمن لم يبلغ لا تسلم اليه أمواله، ومن بلغ ولم يرشد لا تسلم اليه أمواله. وكانت تلك التعاليم مصدرا لقانون المجالس الحسبية فيما يختص بالحجر على السفيه، والقوامة عليه وعلى اليتيم. ثم أباحت الآية للأوصياء أن يأخذوا من أموالهم بقدر كفايتهم اذا كانوا فقراء: «ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف». ثم ختمت الآيات هذه الأحكام بتهديد الأوصياء فى أبنائهم الذين يتركونهم فى كفالة غيرهم، ليفعلوا مع أبناء غيرهم ما يحبون أن يفعل الغير مع أبنائهم، كما هددتهم بالعذاب الأخروى الذى صورته الآيات بأقوى ما يقلع من النفس جشعها: «وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم»، «ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا».

الارث فى الاسلام

وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الأطفال، و يقولون لا يرث الا من طعن بالرماح وذاد عن الحوزة، وحاز الغنيمة، فأبطل الله ذلك وجعل الميراث بسببين اثنين: النسب والزوجية، وبهما عم الرجال والنساء، والصغار والكبار، وجاء فى ذلك على وجه العموم.

أولا: قوله تعالى: «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا»..

ثم جاءت آيات الربع الثانى وفيها التفصيل والتصريح بما يعم الرجال والنساء، والصغار والكبار، والأزواج والزوجات، ثم أرشدت الآيات الى مبدأ له أثره العظيم فى تطييب نفوس الذين يحضرون القسمة والتوزيع من الفقراء والمساكين والأقارب الذين لا يرثون، «واذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا».

وهذه الآية مستند قوى لمن أراد لضريبة التركات مستندا إلهيا كريما من كتاب الله ووحيه، أما المبادئ التى روعيت فى توزيع التركات وتقسيم الميراث ففى قوله تعالى: «يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين..»

الربع الثانى:

تفصيل الميراث

* بين الله فى هذا الربع، وفى آخر آية من السورة، الوارثين والوارثات ونصيب كل وارث بالوصف الذى قرره الله سببا للاستحقاق، فذكر الارث بالبنوة، وبالأبوة، وبالأمومة، وبالزوجية، وبالأخوة وأهل استحقاق الارث بالتبنى الذى كان معروفا عند الجاهلية. وقد جاء ذلك كله فى ثلاث آيات: «يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين..»، «ولكم نصف ما ترك أزواجكم...»، «يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة...» وفى هذه الآيات الثلاث بين ميراث الأبناء: «للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف» وميراث الوالدين: «ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد، فان لم يكن له ولد و ورثه أبواه، فلأمه الثلث، فان كان له اخوة فلأمه السدس». وميراث الزوج: «ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد، فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن». وميراث الزوجة: «ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد، فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم». ولا يخفى ما فى تقرير الارث بالزوجية من تركيز للأسرة على أساس قوى في تبادل التعاون والشعور بالمسؤولية المشتركة، حتى كأن الزوجية نوع من النسب والقرابة الأسرية ..

ميراث الاخوة

أما ميراث الأخوة فيتبع جهة الأخوة، فميراث أخوة الأمومة ذكر بقوله: «وان كان رجل يورث كلالة (من لا ولد له ولا والد) أو امرأة، وله أخ او أخت فلكل واحد منهما السدس، فان كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث».

وميراث الأخوة الأشقاء، أو لأب ذكر فى الآية الثالثة التى ختمت بها السورة: «ان امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم

---

* من الآية ١٢ الى نهاية الآية ٢٣ من سورة النساء.

يكن لها ولد، فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وان كانوا اخوة رجالا ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين».

وجدير بالمؤمنين اذا قرأوا هذه الآيات أن يتدبروا قوله تعالى: «يوصيكم الله فى أولادكم»، وقوله: «وصية من الله»، وقوله: «يبين الله لكم أن تضلوا» وقوله: «تلك حدود الله»، وقوله: «ومن يعص الله ورسوله و يتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين» جدير بهم أن يتدبروا تشديد الله فى المحافظة على أحكام الميراث كما بينها بيانا شافيا، ليس محل اجتهاد، ولا قابلا للتغيير، فلا يتحدث منهم متحدث بالاستظهار على تشريع الله، ولا تغيير أحكامه، وكتاب الله بيِّن واضح، يتلوه الصغير والكبير، و يعرف حكمه الفقيه وغير الفقيه.

الارث بعد قضاء الديون وتنفيذ الوصايا

وقد صرحت الآيات بأن تقسيم التركة على المستحقين انما يكون بعد قضاء الديون، وتنفيذ الوصايا التى لم يقصد بها حرمان مستحق، أو ايذاء وارث، ومنه يعلم بطلان التصرفات التى تجىء على أساس من حرمان بعض الورثة، كعادة حرمان الاناث بالبيع الصورى، أو بالوقف الذى أراح الله الناس منه: «من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار، وصية من الله والله عليم حليم».

حفظ الاعراض

ثم تنتقل الآيات الى نوع من التأديب لمن يرتكب الفاحشة من الرجال والنساء وهو من قبيل التنبيه على الواجب بعد التنبيه على الحق: ففى فاحشة النساء: «واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت، أو يجعل الله لهن سبيلا». وفى فاحشة الرجال: «واللذان يأتيانها منكم فآذوهما»..

تعزير يؤدب به النساء أو الرجال فى فعل الفاحشة الخاصة بالجنس حتى يتوبوا، والتوبة مقبولة عند الله على وجه اليقين اذا فعل الذنب بدافع من الشهوة أو الغضب، وسارع المذنب الى الاقلاع والرجوع الى الله أما من يفعلها و يرجئ التوبة الى أن يحضره الموت و يستشعر مقدماته، فتوبته مرفوضة قطعا، وهى كتوبة

الذين يموتون وهم كفار. أما توبة الذين يفعلون السيئات عن ألف واطمئنان، ثم لا يتوبون عن قرب منها، فالآية لم تصرح بحكم الله فيها، فهو اليه ان شاء قبلها وغفر، وان شاء رفضها وعاقب، فليكن المؤمن منها على وجل: «انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب»، «وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن».

تحذير من عادات جاهلية

ثم تعود الآيات فتحذر من بعض العادات الجاهلية التى كانت تعامل بها النساء: كان الرجل يرث نساء أقاربه، و يتخذها كالمتاع ليأخذ مالها. وكان يضايق زوجته حتى تبذل له المهر الذى دفعه لها ليتزوج به غيرها، وفى هذا وذاك اجحاف ايما اجحاف بالضعيف الذى لا يملك أن يدفع عن نفسه، وفيه تعريض للحياة الزوجية للاضطراب والتحلل، وفيه اهمال لحق الرحم الانسانى العام، وفى ذلك يقول الله: «لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها» و يقول:

«وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً، أتأخذونه بهتانا واثما مبينا، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا».

الربع الثالث:

المحرمات من النساء

* والكلام فيه، لا يزال فى الأسرة، وفيما يختص بتكوينها، وترشد الآيات هنا الى أصناف لا يحل التزوج بهن، ولا تكوين الأسرة منهن، وذلك لما بينها و بين الرجل من صلات لاينبغى تعريضها للفساد، ويجب أن ترفع عن مزالق الحياة الزوجية. ومن هنا حرم التزوج بحلائل الآباء، وقد كان العرب يفعلون ذلك، وقال فيه القرآن: «انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا»، وحرم التزوج بالأم وان

* من الآية ٢٤ الى نهاية الآية ٣٥ من سورة النساء.

علت، والبنت وان نزلت، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت، وحرم بسبب طارئ وهو الرضاع المكون للبنية مثل ما يحرم بالقرابة. واقتصرت الآية على الأمهات والأخوات، وجاء فى السنة الصحيحة: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» و حرمت أم الزوجة وان لم يكن الرجل دخل ببنتها، وحرمت بنت الزوجة اذا كان الرجل قد دخل بأمها. وحرمت حلائل الأبناء الذين هم من الأصلاب، وحرم تحريما مؤقتا الجمع بين الأختين، ومن في معناهما، كالمرأة وعمتها وخالتها، وحرمت المتزوجات واستثنت الآية منهن المهاجرات المؤمنات اللاتى تركن أزواجهن الكفار، وتبين صدق ايمانهن: «فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن اذا آتيتموهن أجورهن».

ثم صرحت الآيات بحل ماوراء هذه المحرمات، مشيرة الى فائدة الزواج من احصان الرجال والنساء، والبعد عن المسافحة والمخادنة كما أوجبت بذل المهور. وأشارت الى لزوم تخير الزوجات من العناصر الطيبة وهى الحرائر المؤمنات، ومنعت التزوج من غيرهن الا عند العجز مع خوف العنت والمشقة، والوقوع فى الفاحشة، ومع ذلك فقد قال الله تعالى: «وأن تصبروا خيرلكم». وذلك محافظة على البيئة الصالحة التي يكون منها النسل، و يترى فيها.

النهي عن اكل أموال الناس بالباطل

ثم عرضت الآيات بعد أن أرشدت الى الهدف من هذا التشريع وهو الهداية الى سبل السعادة والبعد عن حمأة الشهوات والمفاسد، عرضت الى العنصر الثانى فى حياة الأسر والجماعات وهو «المال» فنهت عن أكله بالباطل، والباطل كل ما لم يكن سببا مشروعا فى حل الأموال كالسرقة، والغصب، والرشوة، وأجرة البغاء، والربا، وما الى ذلك مما نهى الله عنه وله أثره السيء فى سلالة المجتمع. ولما كان الاعتداء على المال، من وسائل الاعتداء على النفس جاء فى هذا المقام قوله تعالى: «ولا تقتلوا أنفسكم»، وتوعدت الآيات بأشد العذاب من يعتدى على أخيه فى ماله أو نفسه، كما وعدت بتكفير صغائر الذنوب اذا ما اجتنب هذه الكبائر: «ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا

كريما». ولما كان معظم أسباب الاعتداء، تطلع المقل الى ما بيد المكثر، وتمنى أن يكون ما فى يد غيره فى يده نهى الله عن ذلك و بين أن لكل كاسب وعامل ثمرة عمله وكسبه فليستغل كل انسان مواهبه وقدرته فى الكسب والعمل، ولا يتطلع الى شىء غيره: «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا، وللنساء نصيب مما اكتسبن، واسألوا الله من فضله».

أما المال الذى يورث ولا يكتسب بالعمل فقد بينت الآيات المستحقين فيه وانصباءهم على حسب ما يعلم الله من مصلحة عباده، وهم أصحاب القرابة والزوجية، فحافظوا على قاعدة الكسب، وحافظوا على قاعدة التوزيع، ولا يعتد بعضكم على بعض لا فى كسبه، ولا فى ميراثه: «ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت ايمانكم فآتوهم نصيبهم»..

قوامة الرجل

ولما تضمن تشريع الله للرجال والنساء تفاوتا فى الأعمال والانصباء، وكان ذلك مبعثا لفكرة التسوية عند من لا يحكمون الطبيعة ولا يفهمونها، بينت الآيات أن الحكمة فى ذلك ترجع الى طبيعة كل من الرجل والمرأة، فكلف الرجل، بما له من قوة، بالجهاد والاعمال الشاقة، ومنح بما عليه من تبعات مالية وغيرها نصيبا أكثر من نصيب المراة، وبهذا وذاك كانت له القوامة عليها: «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم»

معنى قوامة الرجال

ثم أرشدت الآيات الى أن تلك القوامة ليست قوامة استعباد وتسخير وانما هى قوامة رئاسة ونصح وتأديب، كالتى بين الرجل وأبنائه، والراعى ورعيته. ومن هنا لم يكن لتلك القوامة أثر بالنسبة لصنف الصالحات القانتات، وانما كان أثرها بالنسبة لمن يظن فيها النشوز والانحراف، وبها كان الوعظ والتأديب الذى يجرى فيها بين الرجل وأبنائه: «فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا». وكان اذا ما اشتد النشوز، ووصل الى الشقاق والخلاف الحاد، انتقل العلاج من التأديب الذى يباشره الزوج الى التحاكم عند الأهل والأقارب الذين يهمهم شأن الزوجين،

و يعز عليهم أن تتدهور الأسرة، و يتشرد الأطفال.. و بقدر نية المحكمين، واخلاصهم فى ارادة بعث الحياة الطيبة بين الزوجين، يسدد الله خطاهم، ويمنحهم من الوسائل ما يعيدون به الى البيت هدوءه واستقراره.

«و ان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها، ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا».

الربع الرابع:

الاحسان فى كل شيء

* الكلام فيه يتجه الى حفز النفوس نحو العمل بالأحكام التى بينتها السورة فيما يختص باليتامى والأسر وتكوين البيوت، وذلك عن طريق التوجيه الى الاحسان العام، والى أن سعادة المؤمن ليست معقودة بالاحسان الى أسرته وأقاربه فقط، وانما ترتبط بالاحسان الى كل ما يحتاج الى الاحسان .

ومن هنا أمر بالاحسان فى عبادة الله وهى اصل الخير كله، والاحسان فيها إفرادُه بالعبادة و التقديس، دون أن يكون لغيره شركة ما فيما هو من خصائص الألوهية، ثم ذكر الاحسان الى الوالدين لأنهما عماد الأسرة، وفيها يشب المرء على الاحسان، ثم يمتد الاحسان منها الى الأقارب والجيران والأصحاب، والى كل أرباب الحاجات، وبهذا ترتبط وحدات الأمة على أساس من الرحمة، وتصبح تلك الوحدات أسرة واحدة، متعاونة فى السراء والضراء فيتحقق الرحم الانسانى العام الذى افتتحت بتقريره بين الناس، ولفت النظر اليه، سورتنا الكريمة.

ثم تشير الآيات الى ان التقصير فى هذا الحق الاجتماعى شأن صنفين من الناس: صنف يختال و يتكبر ولا يرى لغيره حقا عليه، فيبخل بنعمة الله على عباده، و بذلك يشيع خلق البخل بين الناس، فيبخلون كما يبخل، و يتقطع ما بينهم من صلات، وتحدث بينهم الضغائن والاحقاد: «الذين يبخلون و يأمرون الناس بالبخل و يكتمون ما آتاهم الله من فضله». وصنف يتعاظم على الناس

* الآيات من ٣٦ الى نهاية الآية ٥٧ من سورة النساء.

فيحسن اليهم، ولكن ابتغاء مدحهم اياه، وتعظيمهم له، دون أن يدفعه الى ذلك شعور بحق، أو ايمان بالله: «والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر». ثم يسجل القرآن على هذين الصنفين، ان الذى أغراهم بالبخل والرياء على هذا الوجه الذى يدل على حرمان النفس من الفضيلة، انما هو الشيطان، منبع الشر والرذيلة: «ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا» ثم تثير الآيات عجب الناس من هؤلاء فى اعراضهم عن الايمان بالله واليوم الآخر ايمانا يدفعهم الى القيام بالحقوق، والاخلاص فى أدائها على وجه يغرس الفضيلة فى نفوسهم، و يكفل لهم ثواب الله ورضاه، مع انهم لو أخلصوا لما فاتهم شيء مما يحبون، ولحصلوا فى الآخرة على النعيم الدائم والجزاء الحسن: «ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها»، وكيف يكون حال هؤلاء يوم يجمع الله الناس و يشهد على كل أمة رسولها؟.. «يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا».

علاج لأدواء النفوس

ثم تسوق الآيات للمؤمنين علاجا من شأنه اذا قاموا على وجهه هذب نفوسهم، وطهر قلوبهم، فلا تعرف الى البخل ولا الى الرياء سبيلا، ذلكم العلاج هو «الصلاة الخاشعة» عصمة الانسان من الفحشاء والمنكر «ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا، واذا مسه الخير منوعا الا المصلين». وأرشدهم فى ذلك الى تدبرها واستحضار عظمة الله فيها: «لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون». ثم تلفت الأنظار الى تطهير الظاهر حتى تلتقى طهارته مع طهارة الباطن: «وان كنتم جنبا فاطهروا». وتذكر بنعمة الله عليهم فى الاكتفاء بالطهارة الرمزية، وهى طهارة التيمم حين لا يقدرون على الطهارة الحقيقية، وهى طهارة الماء. ثم تعرض الآيات بعد ذلك لحالة طائفة يعلم المؤمنون من أمرها ما يعلمون، من الاعراض عما آتاها الله من أحكام وهداية، وتحريف الكلم عن مواضعه واتخاذها لأنفسها من عناو ين التزكية كأبناء الله وأحبائه، وما يوهمون به أنهم فى غنى عن العمل بنصيبهم من كتاب الله وشرعه، وفى أثناء ذلك تهددهم الآيات بقوله تعالى: «يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن

نطمس وجوها فنردها على أدبارها، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت» .

هذا ما يلفت الله نظر المؤمنين اليه فى وجوب الأخذ بأحكامه، وعبرتنا منه أن نرتفع بأنفسنا عن مواطن الذين يبخلون والذين يراءون، ونعصم أنفسنا عن مسايرة هؤلاء فى تحريف الكلم عن مواضعه، واشتراء الضلالة، وتزكية النفس بمجرد النسبة الى الرسول أو الاسلام، فعلى هؤلاء الذين ينتمون الى كتاب الله، و يقولون نحن مسلمون لله، أن يتدبروا هذا التهديد الالهى، وأن يعلموا أن هذا التهديد سنة الله مع كل من أعرض عن ذكره، ونبذ شرعه وأحكامه، وحرف كلمه عن مواضعه، ثم عليهم أن يستمعوا الى وعيد الله لمن حاد عن طريقه: «ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب» ثم الى وعده لمن التزم حدوده وأحكامه: «والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا، لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا»..

الربع الخامس:

الامانة والعدل

* والكلام فيه لايزال فى التشريع الداخلى الذى يحفظ للأمة استقرارها وهدوءها. وقد أرشدت الآيات هنا الى أن أساس الانتفاع بهذه الاحكام أمران لا تسلم أمة ولا تسعد الا بمراعاتها والحرص عليها وهما أساس الحكم الصالح، وسبيل الحياة الطيبة: أداء الأمانات الى أهلها، والعدل فى الحكم بين الناس. والأمانة اسم للحق الذى أودع عند الانسان، وكلف حفظه ليوصله الى صاحبه الذى يملكه، أو الذى ينتفع به، فيشمل المال، وأداؤه تسليمه كاملا غير منقوص، والعلم، وأداؤه تعليمه على وجهه الصحيح، والرأى، وأداؤه ابداؤه لمن يحتاج اليه، أو لمن بيده التنفيذ، وأداء الأمانات يتناول تيسير طرق الوصول اليها، كنشر الكتب المهدية التى ينتفع الناس بها فى دينهم ودنياهم، وتنقية التعاليم الدينية من

* الآيات من ٥٨ الى نهاية الآية ٧٣ من سورة النساء.

البدع والخرافات والأساطير التى تفسد على الناس دينهم وتصورهم، كما يتناول تنظيم الطرق الزراعية، وحفر الترع، وانشاء المصانع، كل ذلك مما يجب على الراعى تسهيله للرعية وهو امانة فى عنقه ..

أما العدل فى الأحكام فيرجع الى تحرى الحق بوسائله، والبعد عن الهوى والشهوة، وقد أرشدت الآيات الى أن سبيل الأمانة والعدل انما هو طاعة الله المشرع، والرسول المبين، وأولى الأمر، القائمين على حدود الله، الذين هم من الأمة، يحسون احساسها، ويهتمون بخيرها وسعادتها «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم».

ثم تلفت الآيات أنظار المؤمنين الى طائفة تنبت فيما بينهم، تظهر ايمانها بشخصية الأمة، وقلوبها تنكرها، يزعمون أنهم يؤمنون بدين الأمة وقانونها، وهم فى الواقع ينطوون على ارادة التحاكم الى غير دينها الحق تبعا لشياطينهم، وسيرا مع أهوائهم: «واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا».

° ° °

وهذه نابتة السوء، وجرثومة الشر، يختبر الله بها كل أمة، فاحذروهم واحذروا طريقتهم التى تفسد عليكم أمركم: «أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا».

الا وان هؤلاء لا يقام لهم وزن عند الله، ولا تحفظ لهم كرامة الا اذا تابوا وطهروا أنفسهم من رجس النفاق، وتعاونوا معكم على البر والتقوى، وخضعوا لاحكام الله، واتخذوها حكما فيما ينشأ بينهم من خلاف أو يعرض لهم من حاجة: «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت و يسلموا تسليما».

ثم تلتفت الى أولئك المنحرفين وترشدهم الى ما فيه خيرهم من الامتثال لما يلقى عليهم من أحكام الايمان، والانتفاع بثمراتها الطيبة: «ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا. واذا لاتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما». ثم تختتم الآيات هذا التشريع الداخلى الذى تحدثت فيه من أول السورة، تختمه بوعد كريم لمن يطيع الله والرسول فيه، وتعدهم برفع مكانتهم

الى مستوى الذين أنعم الله عليهم من عباده الأخيار «النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقا».

الاستعداد للامن الخارجى بعد الداخلى

ثم تأخذ الآيات فى الارشاد الى ما يتوقف عليه استقرار الأمة من جهة خارجيتها، فتأمر بأخذ العدة والاستعداد الدائم لمكافحة العدو الطارئ عليها، المغتصب لها، وتأمر بتطهير الأمة من عناصر الفساد والتخذيل التى تنبت منها وفيها، وتربط حبالها بحبال أعدائها، وتعمل فى سرها على تمكين العدو من بلادها.

ثم تعرض الآيات فى سبح طويل للتعامُل فى سبيل الله وفى سبيل المستضعفين من الرجال والنساء، والولدان، وترشد الى ما يتوقف عليه النصر، معلية فى ذلك كله شأن الذين يقاتلون فى سبيل الله، الذين يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة، و يضحون بأنفسهم و أموالهم فى اعلاء كلمة الحق، ورد كيد الغاصبين المبطلين: «يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا وان منكم لمن ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على اذ لم أكنْ معهم شهيدا، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم و بينه مودة، يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما».

سورة الأنعام

الربع السادس:

تعامي المعاندين عن الحجج

• قال تعالى: «ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون» .

هذا هو الربع السادس من سورة الأنعام، وسورة الأنعام: هى سورة الحجاج العقلى بين الحق والباطل، وقد سلكت فى حجاجها طريق الحكاية والتلقين، تحكى بكلمة «قالوا» أو نحوها شبهة المبطلين، وتلقن بكلمة «قل» ونحوها الحق وحجته. ومن شأن المبطلين فى كل زمان ومكان، أن يتعاموا عن حجة الحق الواضحة، و يلتمسوا ــ تبريرا لعنادهم واعراضهم ــ حجة ليؤمنوا بها، و يقسموا أنهم ان جاءتهم حجة ظاهرة ليؤمنن بها. والواقع أن كفر المعاندين لم يكن ناشئا عن عدم الحجة، وانما هم بذلك لا تنفعهم حجة، ولا يؤمنون ببرهان، وأنه مهما سيق اليهم من حجج، وهيىء لهم من دلائل فانهم لا يؤمنون إلا اذا سلكوا سنة الله فى ايمان من يؤمن فطهروا قلوبهم من الحقد والحسد، وأقبلوا على النظر البريء فيما يدعون اليه «ولكن أكثرهم يجهلون» يتمكن الجهل والسفه من قلوبهم فيمنعهم أن يسلكوا طريق الهداية والايمان.

وان واجب أهل الحق بالنسبة اليهم أن يعرفوا أن عداوتهم للحق ناشئة

• الآيات من ١١١ الى نهاية الآية ١٢٦ من سورة الأنعام.

من نفوسهم وليست ناشئة من عدم الحجج المقنعة، فلايهتموا بشأنهم، ولا يكترثوا بما يقترحون من حجج وآيات: «وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون».

واجب الدعاة

وليعلم أهل الحق ان سنة الله جرت مع كل نبي وكل داع، أن يثبت لهم أعداء يقفون أمام دعوتهم و يعملون جهدهم فى صرف الناس عنها وماعلى هؤلاء الدعاة الا ان يصبروا و يصابروا، و يعصموا أنفسهم وأتباعهم من الاغترار بزخرف قولهم وفاسد وحيهم حتى يأتيهم نصر الله، و تكون العاقبة للصابرين «وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن»، ولقد كان فى قدرة الله أن يسلبهم قوة المعارضة، ولكن لم يشأ ذلك تحقيقا لحكمة الابتلاء، وتصحيحا لقانون المحاسبة والجزاء «ولو شاء ربك ما فعلوه»..

واذن فيجب على دعاة الحق أن يتركوهم وأن يعتصموا بالحق الذى معهم وتشهد بصحته فطرهم وضمائرهم، كما يشهد بصحته التاريخ الحق لاخوانهم السابقين: «أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين».

فليعتصموا بحقهم، وليثقوا بسنة الله معهم فى النصر والتأييد، و بسنته مع أعدائهم فى الهزيمة والخذلان «وتمت كلمة ربك صدقا وعدلاً لامبدل لكلماته» وليحذروا الاستماع اليهم، والتأثر بما ينفثون من سموم: «وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله»، «وإن الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم، وإن أطعتموهم ــ فى عقيدة أو عمل ــ إنكم لمشركون».

أعداء الحق

وقد جرت سنة الله أيضا أن يجعل أعداء الحق فى كل أمة «أكابر مجرميها» أرباب الرئاسة والجاه والسلطان، وأنهم هم الذين يضطربون لصوت الحق، ويخافون سطوته، وهم لذلك يعملون جهدهم فى وضع العقبات، وفى الكيد لأرباب الحق، ولكنهم فى سنة الله لا يمكرون الا بأنفسهم وسيرون حتما ذلتهم وعزة الضعفاء: «وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون

الا بأنفسهم وما يشعرون».

بهذا مضت سنة الله فى الأولين، وتمضى به فى الآخرين، و به يسجل الله الصغار والذل على المبطلين، الذين يكيدون للحق و يصرفون الناس عن الحق «سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون»، أما من يطهر قلبه من دواعى الاجرام ونوازع النفس الخبيثة، و يستقبل الحق بقلب نق فانه يدخل فى رحمة الله، و ينعم بفضله وهدايته.

«وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون».

الربع السابع:

مهتدٍ وضال

* يواصل هذا الربع، الحديث عما يكون من شأن المهتدين الذين طهرت قلوبهم من الموروثات الفاسدة، ونظروا فى أدلة الحق، فانشرحت به صدورهم وسلكوا طريق الله المستقيم، ومن شأن الضالين، الذين تحجرت قلوبهم فلم ينفذ اليها شعاع الحق، وظلوا فى كفرهم يعمهون، فيذكر بالنسبة للمهتدين. «لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون».

و يصور بالنسبة للضالين بعض مواقف الحشر والحساب، التى يتجلى فيها أن سبب ضلالتهم هو فتنة بعضهم ببعض، واستجابة الاتباع لاغراء المتبوعين، و يتجلى فيها تحسر الاتباع على السير وراء المتبوعين، والتى تتقطع عليهم فيها أعذارهم، و يذكرون برسل الله وآياته، فيشهدون على أنفسهم بالكفر، و يعترفون أن الحياة الدنيا هى التى غرتهم، وصرفتهم عن الايمان بالرسل، وعن النظر فى الآيات: «يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس، وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض»، «يا معشر الجن والانس، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى و ينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا شهدنا على أنفسنا».

---

* الآيات من ١٢٧ الى نهاية الآية ١٤٠ من سورة الأنعام.

شبيه الشيء منجذب اليه

وعندئذ يصدر الحكم على الجميع، ضالين ومضلين: «النار مثواكم خالدين فيها الا ماشاء الله». وفيما بين هذا التصوير الآخذ بالنفوس والذى يعبر تعبيرا قويا عن الاتباع بالمتبوعين فى الدنيا والذى يوضح أن ضلال الفريقين انما جاءهم من قبل أنفسهم، سيرا وراء الهوى والشهوة، لا من قبل الله بحكم قاهر لا مفر منه.

فيما بين هذا التصوير، تقرر الآيات سنتين من سنن الله فى خلقه، تختص احداهما بالضلال والاضلال، وهى أن النفوس المتشابهة فى عوامل الاعراض عن الحق يميل بعضها بحكم المشاكلة الى بعض، تلتقى رغباتهم وأهواؤهم، فتلتقى عقائدهم وخططهم، فيتعاونون، و يتناصرون، و يتبع بعضهم بعضا «وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون».

الجزاء بعد الانذار

وتختص السنة الأخرى بشأن الله فى الحساب والجزاء، وهى أنه ليس من شأنه سبحانه أن يعذب الأمم بما يشيع فيها من مظالم، و ينتهك فيها من حق، قبل أن ينذرهم و يرشدهم، و يبعث فيهم من يدعوهم الى صراطه المستقيم، لئلا تكون لهم حجة، و يقولوا: «ماجاءنا من بشير ولانذير»، «ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون».

سر التكليف والاختيار

ثم تبين الآيات أن هذه السنن التى يعامل الله بها عباده فى الضلال والهدى، والانذار والتبشير، والحساب والجزاء لم تكن ليسد بها حاجة له سبحانه، هو الرب الغنى الذى يحتاج اليه كل من سواه، وانما هى من رحمته بعباده ليظهر فيهم المحسن من المسىء، ويمتاز بها الخبيث من الطيب، ويحظى كل عامل بنتيجة عمله، ولو شاء سبحانه لأذهب العصاة المارقين، وأتى بقوم يحبهم ويحبونه، يطيعون ولا يعصون، ولكن قضت حكمته بتنظيم الكون على هذه السنن، تحقيقا لقاعدة التكليف والاختبار، واظهاراً لفضل العقل الذى فضل به الانسان على غيره من سائر المخلوقات..

اذا فسدت العقيدة ساء السلوك

ولما كانت العقائد الفاسدة تتبعها دائما أحكام فاسدة وتصرفات منحرفة، أخذت الآيات تبكت الضالين فى عقائدهم، على بعض تصرفاتهم التى كانت أثرا من آثار كفرهم بالله،واعراضهم عن شرائعه وأحكامه، فذكرت تصرفهم بالتحليل والتحريم فى الحرث والانعام، تصرفا لم يأذن به الله، ولم يكن فى طبائع الأشياء ما يسمح به أو يبرره: جعلوا منها نصيبا لشركائهم، ونصيبا لله، و بعد هذا يأخذون مما جعلوه لله و يضيفونه لما جعلوه للشركاء، وخصصوا بعض الأنعام والحرث لمن يشاءون، وحرموها على من يشاءون.. حرموا ظهور بعض الأنعام ومنعوا أن تركب أو يحمل عليها و أكلوا ماذبحوه باسم الأصنام والشركاء، وحرموا ما ذكر اسم الله عليه، وهكذا حتى امتد سوء تصرفهم الى أولادهم فتقربوا بقتلهم الى المعبودات.

وعبرتنا فى ذلك: أن التشريعات والتصرفات التى لا تؤسس على الايمان بالله وشرائعه لابد أن تكون عاقبة أهلها الخسران والدمار، فليعتبر هؤلاء الذين يجعلون لغير الله نصيبا فيما خلق والذين يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل ابتغاء شهوة أو تقليد، والذين يعملون جهدهم فى افساد نطف النسل الذى به يعمر الكون، وتظهر به أسرار الله فى خلقه، وليقرأوا جميعا قوله تعالى:

«قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين».

الربع الثامن

نعم الله دلائل وحدانيته

٥وفى هذا الربع تعود الآيات فتذكر أدلة التوحيد الماثلة فى نعم الله التى يتقلب فيها عباده، والتى يسدون بها حاجاتهم، ويمتعون بلذائذها أنفسهم. يذكر من ذلك الزروع و يذكر الأنعام، و يلفتهم الى ما فى الزروع والأشجار من ثروة نباتية ينتفعون بأخشابها فى مهامهم، و بثمارها فى طعامهم، والى ما فى الأنعام من ثروة حيوانية،

٥ الآيات من ١٤١ الى نهاية الآية ١٥٠ من سورة الانعام.

لهم فيها دفء ومنافع ومنها يأكلون: «وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات». «ومن الأنعام حمولة و فرشا، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين». كلوا من الأنعام، كما تأكلون من الزروع والثمار فالكل مما أنعم الله به عليكم، وأحله لكم، وان التفريق بين ماأحلّ الله بتحليل البعض وتحريم البعض، خروج عن قضية التسوية بين المتماثلات فى الطبيعة والحكم، افتراء على الله بالتحليل والتحريم ولا يملك التحليل والتحريم سواه «قل ءآلذَّكرين حرم أم الانثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا» .

اربعة اطعمة محرمة

لم يحرم شيئا من هذا، وما كنتم شهداء اذ حرم. وانما هو افتراء وتضليل «فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم». ان الله لم يحرم شيئا من الزروع، ولا من الأنعام، وانما الذى حرم ان يطعم هو الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، والفسق الذى أهل به لغير الله. وقد حصر الله ماحرم من طعام فى هذه الأصناف الأربعة، وقد جاء ذلك الحصر فى سورتنا بقوله: «قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير، فانه رجس، أو فسقا أهل لغير الله به» وجاء ذلك الحصر مرة أخرى فى سورة النحل بصيغة: «انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير اللّهِ». وسورة الأنعام، وسورة النحل مكيتان، ثم جاء ذلك الحصر مرة ثالثة فى سورة البقرة على نحو ما جاء فى سورة النحل «انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله» ثم جاء مرة رابعة فى سورة المائدة: «حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به» وكان ذلك بعد قوله: «أحلت لكم بهيمة الأنعام الا ما يتلى عليكم». وسورة البقرة، وسورة المائدة مدنيتان. والمائدة بعد ذلك من أواخر القرآن نزولا. ومن هنا يتبين أن حصر المحرمات من الطعام فى هذه الأربعة، هو ظاهر القرآن الكريم.

شبهتان مردودتان

وتعرض الآيات بعد هذا الى شبهتين، كان يتذرع بهما القوم فى أصل التحريم، وفى عدد المحرمات، فكانوا يقولون: لو كان دين الله حصر التحريم فى هذه الأربعة فكيف حرم على بنى اسرائيل كل حيوان ذى ظفر؟ وحرم عليهم بعض شحوم البقر والغنم؟.. ويجيب الله عن هذه الشبهة بأن تحريم ذلك على بنى اسرائيل لم يكن شرعاً وانما كان إبتلاءً وعقوبة «كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل» «ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون». وكانوا يقولون فى أصل التحريم والشرك، وما ورثوا عن الآباء من عقائد وشرائع فاسدة: «لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء» يريدون أن الله رضيه وأمر به، أو انهم كانوا مجبورين عليه بقهره الذى لايستطيعون التخلص منه، وتلك شبهة لا تزال عالقة بالنفوس يعتذر بها المفسدون، ويجادل بها المبطلون، والله يجيب عنها بأن أمثالهم السابقين كذبوا الرسل فأشركوا وحرموا، واعتذروا بالمشيئة كما يعتذرون، فعاقبهم الله على شركهم، ولم يكترث باعتذارهم، فلو كان حقا ما قالوا لما عاقبهم «كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا» ثم طالبهم بما يثبت رضا الله بالشرك والتحريم أو بما يثبت قهرهم على ماهم عليه: «قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن، وان أنتم الا تخرصون».. واذ لا علم عندكم فلا تتبعوا أهواءكم واتبعوا ما أنزل الله اليكم: «قل فللّه الحجة البالغة»..

الانسان مختار غير مقهور

كلفكم ووعد وأوعد، وتركككم كما خلقكم، مختارين غير مقهورين ولا مجبورين، ليكون للمحسن احسانه، وللمسيء اساءته، ولو شاء لقهركم على الطاعة فلا تقدرون على العصيان، أو قهركم على العصيان فلا تقدرون على الطاعة، وعندئذ لا تكونون من النوع الذى أعده للخير والشر، وهداه النجدين.

ثم يستنهض همتهم فى استحضار من يشهد لهم بما يقولون، ويحذر النبى صلى الله عليه وسلم واتباعه من السير فى طريق شبههم الضالة:

«ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لايؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون».

الربع التاسع:

٥عرضت سورة الأنعام لكثير من أدلة التوحيد والرسالة والبعث، ودفعت كثيرا من الشبه التى كان يثيرها خصوم الدعوة عليها وعلى الدعاة، و بينت فى سبيل تسلية الرسول وصحبه جملة من سنن الله فى الاضلال والهداية، وفى معارضة الباطل للحق حتى أوفت فى ذلك كله على الغاية، وأخيرا ختمت بهذا الربع: «قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا، و بالوالدين احسانا»... الآيات. فركزت الدعوة فى أمهات الفضائل، وأسس الخير للفرد والجماعة، ففى جانب العقائد :

«الا تشركوا به شيئا»، فله وحده العبادة، و به وحده الاستعانة، ومنه وحده الخوف والرجاء، وله وحده التحليل والتحريم.

وفى جانب العمل:

«و بالوالدين احسانا». فمنها نشأ الانسان وفى أحضانها ترنى، والاحسان اليها اعتراف بالنعمة وتقدير للجميل: «ولا تقتلوا أولادكم من املاق». فالولد ثمرة الحياة، وحلقة فى سلسلة النوع الانسانى، وفى حكم قتلهم العمل على منعهم حيث لا ضرورة تدعو اليه، واهمال تربيتهم، أو تنشئتهم على بغض بلادهم ودينهم..

«ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق». فالاعتداء عليها هدم لعمارة بناها الله، واعتداء على خلافة أرادها الله. نعم. أهدرت عصمة النفس البشرية اذا اعتدت على أخت لها بريئة فقتلتها، أو على نظام الله العام فحاربته، أو على جماعة المسلمين فناصبتها العداء.

«ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط». فالأموال صنو النفس، وعنصر الحياة. والاعتداء عليها اعتداء على الحياة، وقد خص بالذكر «الأكل» عن طريق استضعاف المالك كاليتيم، وعن طريق الاختلاس فى المعاملات التى لابد للناس منها، وهو طريق البيع والشراء: «و يل للمطففين..».

---

٥ الآيات من ١٥١ الى آخر سورة الأنعام.

وفى جانب القول:

«واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، و بعهد الله أوفوا». العدل، والوفاء بالعهد قطبا النظام، فلا عمران مع الظلم، ولا نظام مع المحسوبية، ولا ثقة مع نقض العهود. واهمال شرع الله نقض لعهد الايمان، والاخلال بالالتزامات نقض لعهد الانسان. وتبديل حكم الله نقض لعهد الله ولاحياة لأمة عرفت بنقض العهود..

«وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» جمع الكلمة وارتباط القلوب حول تركيز شرع الله اعتصام بحبل الله، وسبيل للخير والفلاح. والتفرق غول الأمم، ومورد التهلكة.

وصايا إلهية

تلك وصايا الله، بعث بها كل رسول، وأنزل بها كل كتاب.. فهى شرعه الدائم، وصراطه المستقيم، جاء بها كتاب موسى، وجاء بها القرآن الكريم، ليؤكد اللاحق السابق: «ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن»، «وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون». والاعراض عنه تكذيب بآيات الله وسبيل لغضب الله، والتفرق فيه تضييع لأمانة الله: «ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء، انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون».

ثم تختم السورة بأمرين عظيمين، يرجع أحدهما الى تقرير الدعوة فى نفسه صلى الله عليه وآله وسلم تقريرا يحس به وجدانه، و يتجلى به ظاهره، ويمتلىء قلبه ببرهانه المادى والتاريخى: «قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم، دينا قيما ملة ابراهيم» «قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين»، «قل أغير الله ابغى ربا وهو رب كل شيء».

وتقرير الدعوة على هذا الوجه له من الأثر ــ فى قوة الداعى، وفى تبديد شبه المعارضين ــ ما يركز للحق سلطانه، و يرمى بجبهة المعارضة الى مكان سحيق..

أما الخاتمة الثانية والأخيرة فهى ارشاد الانسان الى مكانته التى أعدها

الله له فى هذه الحياة، تلك المكانة التى تمثلها خلافته فى الأرض، وان الله جعل عمارة الكون تحت يده و بعمله، تتعاقب عليه أجياله، و يقوم اللاحق فى ذلك مقام السابق، وان الله سبحانه قد فاوت فى المواهب ليظهر من يحسن فى الخلافة فيكون له من الله مغفرة ورحمة، ومن يسيء فيكون له من الله شديد العقاب: «وهو الذى جعلكم خلائف الأرض، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم، ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم».

سورة الأعراف

الربع الأول:

مهمة التنزيل المكى

• سورة الأعراف أول سورة طويلة نزلت من القرآن الكريم، وأول سورة عرضت للتفصيل فى قصص الأنبياء، وهى أطول سورة فى المكى ومهمتها هى مهمة المكى: تقرير التوحيد.. ربوبية والوهية وتشريعا، وتقرير البعث والجزاء، وتقرير الوحى والرسالة. وتلك هى أصول الدعوة الدينية التى كانت لأجلها جميع الرسالات الالهية ..

واجب الداعى وحقه

نوهت بشأن الكتاب، وأرشدت الى الغاية التى لأجلها أنزل، والى ما يجب على الرسول ــ بصفته الداعى ــ أن يطرده عن قلبه حتى يقوى فى الدعوة و يقوم بالمهمة التى ألقيت على كاهله: «كتاب أنزل اليك فلايكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين»، فعلى دعاة الخير أن يتسلحوا بالهدوء والاطمئنان. وعلى الناس أن يوفروا عليهم راحة الضمير، وألا يضعوا أمامهم العقبات التي تحرج الصدور، وتقبض النفوس، وقد اجملت السورة دعوتها الى هذه الأصول فى آية واحدة، تحمل الأمر بناحية الايجاب، وتحمل النهى من ناحية السلب، فطلبت

• أنظر أول الاعراف الى نهاية الآية ٢٥.

اتباع ما أنزل من عقائد وأخلاق وأعمال، ونهت عن اتخاذ أولياء من دون الله، يرجع اليهم فى التحليل والتحريم، أو يقصدون بالعبادة والتقديس، أو يعتمد عليهم فى الشفاعة والمغفرة: «إتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء».

ثم سلكت سبيل الانذار: فأنذرت بما أصاب الأمم السابقة حينما كذبت رسلها، وعتت عن أمر ربها: «وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون». وخوفت بما أُعِدَّ للمكذبين يوم أن يسألوا عما أُنزل اليهم، و يوم أن يسأل عنهم المرسلون، يوم الوزن الحق، يوم يثقل الميزان أو يخف: «فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين»، «والوزن يومئذ الحق» ثم سلكت سبيل التذكير بالنعم، فلفتت الأنظار الى نعمة تمكين الناس فى الأرض، وآتخاذهم اياها وطنا مزودا بضروب المنافع الشتى، يستقلون فيه بالحكم، والانتفاع بموارده الظاهرة الباطنة لا يشاركهم فيه أحد، ولا يخرجهم منه انسان «ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش».

ولفتت الأنظار الى نعمة خلقهم من أب واحد، يجمعهم به رحم واحد، وبه كانوا خلفاء فى الأرض وعمارة الكون، وفضلهم بذلك على كثير من خلقه. وهنا ذكرت السورة خلق آدم وقصته مع الملائكة، من أمرهم بالسجود له، اظهارا لفضله، وتنويها بما يكون له من شأن، بعد أن قالوا: «أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك».

تحذير من ابليس وجنده

ثم ذكرت موقف ابليس من آدم وكيف أبى وآستكبر، وتعالى وتعاظم وقال: «أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين». ومن هنا ظهر للانسان عدوه المبين، الذى ابتلاه الله به فى هذه الحياة، والذى يجب عليه ــ ليسلم من شره و يسعد، ويحصل على رضا مولاه، ويحقق حكمة الله فى خلقه ــ أن يتخذه عدوا، يتحسس نواياه، و يتعرف وسوسته و يكافحه بكل ما أوتى من قوة، يعرف انه قد نصب له الشباك وقعد له بالمرصاد، ورسم خطته فى اغوائه والكيد له: «لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن

شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين»..

بصرنا الله بهذه العداوة، وحذرنا منها «اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين». ثم يذكرنا بما كان من أثر عداوته لآدم أبى البشر: كان آدم وزوجه فى رغد من العيش فابتلاهما الله بتكليف خاص، فوسوس لهما الشيطان ليظهر ضعفهما، فينحرفا عن التكليف، فيقعا فى شر المخالفة، فيكون لهما من الله جزاء المخالفين «فوسوس لهما الشيطان». «وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور»، ووقعا فى المخالفة، ثم تنبها الى كيد الشيطان، وقالا: «ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفرلنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين».

وهكذا يجب أن يربط أولاد آدم نسبهم بآدم، فيعرفوا ــ كما عرف ــ كيد الشيطان، و يطهروا أنفسهم ــ كما طهر ــ من وسوسته واغوائه، فقد خلقهم الله فى الأرض، وابتلاهم بالشهوات، وتعارض الرغبات، وقام الشيطان بينهم، يضل، و يكيد، و يفرق، و يغرى، ونظم حياته على قوى الافساد، فليحذروه، وليتقوا شره، وليعتصموا بدعوة الله الواقية، لعلهم يرحمون «اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين. قال فيها تحيون وفيها تموتون، ومنها تخرجون».

وتخلص الآيات بعد ذلك الى نداءات أربعة تتجه بها الى الناس بوصف البنوة لآدم تذكرهم بنعم الله عليهم، وتحذرهم فتنة الشيطان، وترسم لهم طريق الخير والفلاح فى الدنيا والآخرة.

الربع الثانى:

الانسان بين الخير والشر

٥ قص الله علينا نبأ آدم مع ابليس، وكان مغزاه ان الانسان له جانب خير يتلقى به أمر ربه ويمتثله و ينفذه، فيصل الى سعادته والى رضاه، وله جانب شر، به يستجيب لوسوسة الشيطان واغوائه، فيبعد بذلك عن سعادته، و يصيبه غضب

٥ الآيات من ٢٦ الى نهاية الآية ٤٣ من سورة الأعراف.

الله. وأولاد آدم من آدم، تكوينهم من تكوينه واستعدادهم من استعداده فلهم كأبيهم جانب خير يقودهم الى اتباع أوامر الله، وجانب شر يوقعهم فى المخالفة والعصيان، وابليس الذى نشأ على عداوتهم يغريهم و يوسوس لهم كما أغرى أباهم ووسوس له، ويحاول أن يكشف لهم من عورات وسوءات، كما كشف لأبيهم من عورات وسوءات.

لهذا وجه الله الى أبناء آدم، بعد أن بين لهم عداوة ابليس لأبيهم، أربعة نداءات متتالية بوصف البنوة لآدم «يابنى آدم» يرشدهم فيها الى نعمته عليهم ويحذرهم بها من عدوهم، و يرشدهم الى أن هدايته لهم والتمسك بها هى وحدها سبيل عصمتهم من الوقوع فى كيده، و يذكرهم بأن الحرمان من النعيم، الذى أصاب والديهم، انما كان بنسيانها نعمة الله، و باستجابتها للشيطان، واغفالها هداية الله.

امتنَّ عليهم بأن هيأ لهم سبيل الحصول على الملبس الذى به يسترون عورتهم و يريشون به أنفسهم فى مناسبات التجمل، ولفت أنظارهم الى أن تقوى الله فى الانتفاع بنعمة اللباس على الذى رسم الله هو أساس الرضا، وأساس الشكر «يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا، ولباس التقوى ذلك خير».

وفى تحذيرهم من فتنة الشيطان التى فتن بها والديهم من قبل، ووقعا بها فى المخالفة والعصيان: «يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة». وفى سبيل هذا يرشدهم الى أن عدم الايمان بالله والاعراض عن هديه هو الطريق الوحيد الذى به يتسلط الشيطان عليهم، و ينفذ منه الى قلوبهم: «انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون»، فيأخذون بهم الى طريق الشر، ويخيلون لهم ان ما يفعلون من شر وفاحشة انما هو باذن الله وأمره «واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها». ثم يجىء النداء الثالث، فيكشف عن المعنى الانسانى فى اللباس، وانه من الزينة التى تحفظ على الانسان مكانته، و يأمرهم باتخاذها فى المساجد ومايماثلها من المجتمعات، يرشدهم الى الاعتدال فيها و يضم اليها الأكل والشرب، و يقول: «ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين»..

وكما يحذر الاسراف، يحذر الحرمان، و ينكر على الاشحاء أو المتنطعين

حرمان أنفسهم من الزينة والطيبات من الرزق، و يرشدهم الى أن الجدير بالتحريم و بتطهير النفس منه «الفواحش» التى تأباها الانسانية، و«البغى» فى الأرض. و«الشرك» الذى لا تقوم له حجة، ولا يوحى بفضيلة، والقول على الله بغير علم، وهو أصل الضلال، والقضاء على شرائع الله وأحكامه. وترشدهم الى أن لكل أمة أجلا، تحاسب بعده على ما اقترفت من المظالم والمآثم، و ينزل بها الجزاء الذى تستحق، وانها لا تحظى بالنعيم بعد هذا الأجل الا اذا آمنت بالله وهداه، واتقت حرماته، وأصلحت ما أفسدت أو أفسد الناس: «يا بنى آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

حرمان أبدى

ثم تصور لنا الآيات بعد مشهدا من المشاهد الواقعية يوم الجزاء للمكذبين حتى يتضح الحق، و يشهدون على أنفسهم بالكفر والتكذيب، وان أربابهم ــ الذين كانوا يدعون من دون الله، وشفعاءهم الذين كانوا يعتمدون عليهم فى النجاة من عذاب الله ــ قد ضلوا عنهم وتبرأوا منهم، وفى هذا المشهد يتخاصم التابعون والمتبوعون، و يلقى كل منهم بالتبعة على صاحبه، و يسجل الله على الجميع تابعين ومتبوعين ضالين ومضلين الحرمان الأبدى، و يوصد فى وجوههم أبواب الرحمة، و يصف تقلبهم فى طبقات الجحيم المستعرة: «كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون».

«لا تفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط».

«لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين».

نعيم دائم

وبجانب مشهد الظالمين المكذبين، ترسم الآيات مشهد المصدقين المؤمنين صفاءً للنفوس من الغل والحقد، وحمدا على هداية الله، وشكرا على نعمته: «ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار»، «وقالوا الحمد لله الذى هدانا

لهذا و ما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله»، «لقد جاءت رسل ربنا بالحق، ونودوا أنْ تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون».

الربع الثالث:

محادثة بين فرق ثلاث

* يتحدث هذا الربع عن مشهد آخر، تبدو فيه الوان جديدة من صور التحية والتكريم للمؤمنين، ومن صور التبكيت والحسرة للمكذبين، وتجرى فى هذا المشهد محادثة بين فرق ثلاث: فرقة المؤمنين أصحاب الجنة، أهل الهدى والايمان. وفرقة الكافرين، أصحاب النار، أهل الضلال والبهتان. وفرقة ثالثة لم يتحدث عنها القرآن الا فى هذه السورة، وفى هذا الربع و باسمها سميت السورة، وهى الفرقة التى سميت بأصحاب الأعراف «ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار». «وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم». «ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم». «ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة» .

مشهد أخروى، سيشهده العالم يوم البعث والجزاء دون تصوير ولا تخييل، تبين تلك الآيات ما سيكون فيه شماتة أهل الحق، أصحاب الجنة، بالمبطلين أصحاب النار «أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟» فلايستطيعون الا أن يقولوا: «نعم» فينطلق صوت علوى، يسجل عليهم اللعنة والطرد والحرمان، ومشيرا الى أن ظلمهم للحق ولأنفسهم هو الذى حملهم على الصد عن سبيل الله وعلى السلوك المنحرف، وعلى الكفر بما يرون الآن. وتبين أن بين الجنة والنار حجابا، وأن على الأعراف رجالا، يعرفون كلا من أهل الجنة والنار بسيماهم، فينادون أهل الجنة بجميل التحية والتكريم: «أن سلام عليكم» و ينادون الآخرين بما يضاعف حسرتهم، و يبين لهم ما كانوا فيه من غرور: «ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون. أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة»؟.. ثم يلتفتون الى أهل الايمان و يقولون: «أدخلوا الجنة لاخوف عليكم

* الآيات من ٤٤ الى نهاية ٦٤ من سورة الأعراف.

ولا أنتم تحزنون».

و يستقر أهل الكفر والضلال فى الجحيم، وتشوي النار وجوههم، وتجفف أكبادهم، فيفزعون الى نداء أهل الجنة: «أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله» فيقولون لهم: «ان الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا». وهنا يقطع الله أعذارهم بأنهم كانوا فى حل يوم أن جئناهم بكتاب فصلناه على علم، فماذا يقولون اليوم وقد تركوه من قبل؟.. «قدجاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل، قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون».

تلك شماتة المؤمنين بالكافرين، وتحسر الكافرين على حرمانهم وسوء مصيرهم و بشرى أصحاب الأعراف وتحيتهم للمؤمنين، وتبكيتهم للمنكرين الضالين..

الحجاب والاعراف

وقد تكلم العلماء كثيراً فى الحجاب الذى بين الجنة والنار، كما تكلموا فى معنى الأعراف وفى رجاله. والذى يجب علينا أن نؤمن به أن هناك حجابا بين الجنة والنار، قد يكون ماديا، وقد يكون معنو يا، والذى يعلم حقيقته هو الله وحده. والقصد ان هناك ما يمنع وصول أهل الجنة الى النار، أو وصول حرارة النار اليهم، ويمنع وصول أهل النار الى الجنة، أو وصول نعيمها اليهم. وان هذا الحجاب لا يمنع من وصول الأصوات عن طريق المناداة.. ولعلّ ما نشاهده، وما نحن فيه الآن من سماع الأصوات دون رؤ ية ومشاهدة، أو الرؤ ية دون اتصال أو قرب، أوضح شاهد على أن ما تصوره الآيات حقيقة تقع وتأخذ حظها من الوجود، وليست تخييلا ولا تمثيلا.

أما الأعراف، فأظهر ما نراه فى معناها، الأماكن العالية الممتازة. يكون عليها رجال لهم من المنزلة الرفيعة عندالله ماجعلوا به مشرفين على هؤلاء وهؤلاء، وهم عدول الأمم، والشهداء على الناس، وقد جاء التصريح بهم فى مثل قوله تعالى: «فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا». «وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء، وقضى

بينهم بالحق وهم لا يظلمون».

عظات

وبعد هذا تعود الآيات فتلفت الأنظار الى بعض الأدلة الكونية وتوجه النفوس الى دعوة الله تضرعا وخيفة، وتحذر من الافساد فى الأرض، وتذكر مثلا للنفوس الطيبة التى تنفعل بهذه الأدلة فتؤمن وتصدق وترد الأمر كله الى مصدره، خالق السموات والأرض، والذى له الخلق والأمر. ومثلا آخر ــ يقابله ــ للقلوب الملتوية التى تصرفها الشهوة عن الحق، و يتحكم فيها الكبر، فيمنعها من قبوله: «والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا». ثم تعود الآيات فتذكر تفصيلا لما أجملته السورة فى أولها من أحوال الأمم المكذبة، فتذكر جملة من الأمم التى كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها، وتبدأ بالرسول الأول الأب الثانى للبشر «نوح عليه السلام»، فتبين أن دعوته كانت هى دعوة محمد عليه الصلاة والسلام: «أعبدوا الله ما لكم من إله غيره»، وان الذين ناصبوه العداء وأخذ يسالمهم و يناصحهم، هم المستكبرون من قومه. كما كان شأن المكذبين لمحمد عليه السلام. وأن نوحا لما صبر وصابر واستمر قومه على العناد والمكابرة كانت العاقبة للجميع: «فأنجيناه والذين معه فى الفلك، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين». وهكذا سنتنا مع الآخرين المكذبين.

سورة يونس

الربع الثالث:

• عنيت سورة يونس بما عنيت به السور المكية، من تقرير التوحيد، والرسالة والبعث، ودفعت جملة من الشبه التي كان القوم يثيرونها حول رسالة الرسول، وحول القرآن. ووصفت فى كل ذلك ماشاءت أن تصف، وفى هذا السياق ضربت للقوم مثل الحياة الدنيا التى خدعتهم زخارفها، وحالت بينهم و بين استجابة الدعوة، وهى دعوة الله التى يدعو بها الى دارالسلام، والأمن من الشقاء والحيرة والارتباك، ثم تصف حالة المحسنين الذين استمعوا للدعوة وما يحصلون عليه من الكرامة الخالدة، والمكانة الرفيعة التى لا يلحقهم فيها نكد ولا ذلة: «أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون» وتصف بازائها حالة المسيئين الذين كسبوا السيئات، وما يصيبهم فى دار الخزى من المذلة والمهانة: «أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

ثم تصف مشهدا من المواقف التى يصير اليها المكذبون يوم الحشر الذى ينكرونه و يستهزئون بذكراه، ذلكم المشهد الذى يفرق فيه بينهم و بين شركائهم فتذهب آمالهم فيهم، وتتقطع ما بينهم من صلات، و يتبرأ منهم الشركاء: «ما كنتم ايانا تعبدون»، «ان كنا عن عبادتكم لغافلين»، وفى هذا الموقف ينكشف الغطاء، وتزول الأهواء، وترى كل نفس ما قدمت من عمل، ليس لها شفيع من دونه: «وردوا الى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون».

• الآيات من ٢٥ الى آخر الآية ٥٢ من سورة يونس.

تحكيم الفطرة

ثم تنتقل الآيات الى تحكيم الفطرة البشرية فيما تشهد به من توحيد الربوبية فى الخلق والتدبير والرزق، والاحياء والاماتة، وتسجل عليهم الجواب المتين الذى لا تعرف الفطرة سواه، توحيد الالوهية القاضى بعبادة الله وحده «فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال».

ثم تنتقل بهم الى تحكيم الفطرة أيضا فيما وراء الخلق المادى من أنواع الهداية المودعة في نفوس البشرية وهى هداية العقل، وهداية الوجدان: «هل من شركائكم من يهدى الى الحق، قل الله يهدى للحق، أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع،أمن لايهدى الا أن يهدى».

حول القرآن

ثم تنتقل الآيات بعد الحجاج العقلى والوجدانى الى موقف القوم بالنسبة للقرآن، وقد كانوا ينكرون أنه من عند الله، فبينت لهم أولا ان القرآن بطبيعة ما اشتمل عليه، من تقرير الحقائق، واقامة الأدلة الكونية وشرح النفسيات الانسانية، والسنن الاجتماعية، والمغيبات الماضية والمستقبلة، والأحكام التى ترشد الى السعادة، يأبى بكل ذلك أن يكون من عند محمد، أو غيره ممن لاسبيل الى معرفتهم بما احتوى عليه القرآن، فهو حق من عند الله لا ريب فيه، وهو تصديق لما بين يديه من كتب الأولين: «وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله».

ثم أخذت بهم الآيات ثانيا، على افتراض انه افتراء من عند محمد، الى التحدى، ودعتهم الى الاتيان بمثله، أو بسورة مثله، فهم ومحمد فى البيئة واللغة سواء: عربى وعرب، و بليغ و بلغاء.

ثم تكشف لهم عن حقيقة أمرهم، وهى أنهم قوم مجترئون على ما لم يحيطوا بعلمه، ولم تنفذ عقولهم الى أسراره وحكمه، وستتضح لهم عاقبة ظلمهم فى أنفسهم، كما اتضحت لاخوانهم المكذبين من قبل: «فانظر كيف كان عاقبة الظالمين». ثم ترشد الآيات الى أن جهلهم بحقيقة ما اشتمل عليه الكتاب، أو عدم ايمانهم به، لم يكن ناشئا من خفاء الكتاب أو اضطرابه. وانما هو ناشئ عن صلفهم وتكبرهم عن النظر فى الحق، «أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون»، «أفأنت تهدى

العمى ولو كانوا لايبصرون». فما عليك أيها الرسول سوى أن تدعوهم بحجتك وأن تنذرهم يوم الحشر، يوم ينكشف لهم الغطاء، و ينزل بهم العذاب، وقد تخلف عنهم كل ما أغراهم من زينة الدنيا وشهواتها ولم ينتفعوا بشيء منها، أو كأنهم لم يلبثوا فيها الاساعة من النهار، وهنا تسجل الآيات عليهم الخسران الأبدى بما فرطوا فى جنب الله: «قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وماكانوا مهتدين»، «ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد، هل تجزون الا بما كنتم تكسبون».

الربع الرابع:

انذار وامهال

• من سنة الله مع المكذبين أن ينذرهم، ثم لا يأخذهم من قريب، بل يمهلهم فترة يستطيعون فيها مراجعة أنفسهم، فاذا ما انقادوا وآمنوا ضمهم اليه، وغفر لهم ما أسلفوا من عناد. ومن الناس من يطغيهم الامهال و ينسيهم تلك السنة، فيتخيلون أنهم فى الانكار على حق، و يندفعون الى السخرية والاستهزاء بما به ينذرون: «متى هذا الوعد ان كنتم صادقين» أحق ما تقول؟!.. وهكذا يأخذ بهم الصلف الى استعجال العذاب، أو السخرية به!..

أمام هذا الطغيان يأمر الله نبيه أن يقرر لهم أن العذاب حقيقة واقعة، وأنه نازل بهم لا محالة، وانهم غير قادرين على التخلص منه: «وما أنتم بمعجزين». وتأكيداً لذلك فى نفوسهم تصور الآيات لهم ما تعتلج به صدورهم حينما يطوقهم العذاب من محاولة الافتداء، وشدة الندامة على مواقفهم السالفة التى أوقعتهم فيما هم فيه. ثم توقظ ضمائرهم نحو ما استقر فى الفطرة البشرية من أن صاحب هذا الوعيد، وصاحب هذه الدعوة، هو الله الذى له ملك السموات والأرض، والذى له الاحياء والاماتة، والذى اليه المرجع والمآب: «هو يحيى ويميت واليه ترجعون». ثم تأخذ الآيات فى بيان فضل الدعوة على الناس، وانها موعظة زاجرة لهم عن القبائح، وشفاء مطهر لقلوبهم من الأوهام والخرافات، وارشاد موصل للحق

• الآيات من ٥٣ الى آخر الآية ٧٠ من سورة يونس.

والمنافع، ورحمة تقى الانسان العذاب والخسران. وهواستدلال على صحة الرسالة بنفس تعاليمها، ثم تؤكد لهم ان هذه المزايا خير مما يجمعون من زخارف الدنيا الفانية التى ليس وراءها الا الخسران المبين.

ثم تبكتهم فى أثر من آثار كفرهم، وهو اغتصاب حق الله فى التحليل والتحريم، وتسجل عليهم الافتراء به على الله: «قل آلله اذن لكم أم على الله تفترون. وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة» أيظنون ان الله يجاملهم ولا يجازيهم؟.. «ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لايشكرون».

ثم تقرر الآيات احاطة الله بكل ما يكون من شأن الانسان، وبكل ما اودع فى كونه الذى خلقه «وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا اصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين». وأنه بهذا العلم المحيط يقرر الجزاء العادل، فالمكذب له من جزاء التكذيب ما توعد به المكذبين، والمؤمن له من جزاء الايمان ما وعد به المؤمنين: «ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون»، لهم فى الدنيا ما يضيء وجوههم، ويركز سلطانهم من عزة وقوة وجاه، ولهم فى الحياة الآخرة ما يضيء وجوههم من علو الدرجات وزيادة الفضل والعطاء.

خرافة الشركاء

واذا كان هذا شأن الله مع المكذبين والمؤمنين، وكان لا تبديل لكلماته، فليطمئن دعاة الخير ولا يكن فى صدورهم حرج مما يذيع المكذبون وليثقوا بنصر الله الغالب على أمره، الذى له ملك السموات والأرض ومن فيهن، وليعلموا أن ما يعبد هؤلاء المكذبون من دون الله، ويسمونهم شركاء، ليسوا فى واقع أمرهم شركاء، وانما هم ضعفة عجزة، لا يدفعون عن أنفسهم شيئا، «والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون». وانما خيل لهم الهوى والشيطان أنهم شركاء، فضلوا «وإن هم إلا يخرصون» إن الله الذي جعلوا له هؤلاء الشركاء من دونه هو الذى جعل لهم الليل ليسكنوا فيه، والنهار ليبتغوا من فضله. وقد خرجوا بفساد تصورهم عن مقتضى الفطر، ومقتضى الآيات، وراحوا يكفرون

بالله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض، و يقولون فى شأنه، ما ليس لهم به علم: «قل ان الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون، متاع فى الدنيا، ثم الينا مرجعهم، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون».

الربع الخامس:

• تضمنت سورة يونس كثيرا من أنواع الحجج العقلية، ودفعت كثيرا من الشبه التى كان يثيرها المعاندون حول التوحيد والبعث والرسالة وكانت تذكر فى الأثناء بما أصاب الأمم السابقة حينما وقفت من رسلها موقف المكذبين لمحمد عليه الصلاة والسلام: «ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا»، «كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين»، «ولكل أمة رسول، فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون».

تسلية وعبرة

ثم جاءت هذه الآيات: «واتل عليهم نبأ نوح» تفصل من هذه النذر الاجمالية قصتين، لهما كثير من الشبه بقصة محمد مع قومه: قصة نوح عليه السلام، وقصة موسى وهارون. وقصرت الحديث فى قصة نوح على مادعت اليه حالة الرسول مع قومه وقت نزول هذه السورة، حينما فقد المدافع عنه فيما بينهم، وهو عمه أبوطالب، وفقد النصير فى البيت، بموت زوجه خديجة، واشتد القوم فى ايذائه والكيد له، فأخذت الآيات فى تسليته صلى الله عليه وسلم بموقف نوح من قومه، وثباته على دعوته، معتمدا فى ذلك على الله وحده، وأرشدته الى أن طول الأمد على نوح، وشدة اعراض القوم عنه، لم يضعف من قوته، بل تحداهم، وطلب اليهم أن يجمعوا له كل مايستطيعون جمعه من قوى الكيد والشر، وأن يتحروا فى أمرهم، و يزيلوا عنه كل شبهة تعترضهم فى سبيل الايقاع به والقضاء عليه، ثم يتجهوا له بكل ما هيأوا ورتبوا، دون امهال أوتردد، وسوف يرون أنه لايرفع لهم رأسا، ولايعبأ لهم

• الآيات من ٧١ الى نهاية الآية ٨٩ من سورة يونس.

بجمع، وكيف يهتز بجمعهم وهو لم يطلب بدعوته اياهم جاها ولا مالا، وانما يطلب بدعوته تنفيذ أمر ربه، الذى وكل أمره اليه، واعتمد فى السراء والضراء عليه: «يا قوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت».

فهذا يا محمد، موقف أخيك نوح، تمسك به وان طال عليك الأمد، واشتدت شكيمة الأعداء، وثق بأن عاقبتك عاقبته، وعاقبة المكذبين لك هى عاقبة المكذبين له، وتلك سنتنا ولن تجد لسنتنا تبديلا، فليتحصن أرباب الدعوات الصالحة بايمانهم وتوكلهم على الله، وسينظر الله اليهم، و ينزل بأعدائهم ماجرت سنته على انزاله بأعداء الحق فى كل زمان ومكان. وهكذا فعل بقوم نوح، وفعل بنوح، «فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين».

أما قصة موسى وأخيه، فقد تحدثت الآيات فيها عن مراحل الدعوة من مبدئها الى منتهاها: تحدثت عن العوامل التى استكبر بها فرعون وملؤه عن قبول الدعوة، وردتها الى أمرين: التمسك بالموروثات الفاسدة «أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا». واعتقاد أن دعوته تسلبهم كبرياء الملك والعظمة، وتجعلها لموسى وأخيه «وتكون لكما الكبرياء فى الأرض» وأخذوا بهذا ينفرون الناس من الدعوة، و يقولون: «ان هذا لسحر مبين».

الباطل هزيل

ثم تحدثت عما جرت به سنة المكذبين من أساليب المقاومة الهزيلة التى توقع فى روع العامة ان المعارضين على حق فى المعارضة والتكذيب، ولكن الباطل لا صبر له على البقاء أمام الحق، وسرعان ما تتزلزل قوائمه، و يقع صريعا فى ميدان التحدى «ويحق الله الحق بكلماته ولوكره المجرمون»..

وقد كان من المنتظر بعد هذا أن يقبل الناس على الايمان، ولكن الجبروت يتخذه صاحبه سلاحا فى يده، يرد به الناس عن تلبية الحق، وبهذا يحجم كثير عن الايمان، ولا يقوم اليه الا أرباب النفوس القوية، التى تبدد قوة ايمانهم غشاوة الخوف عن قلوبهم، «على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين».

ثم يرشد الله موسى وأخاه الى وسيلة تشد من أزرهم، وتوقع الرعب فى قلوب أعدائهم، وهى أن يتقاربوا ويجعلوا بيوتهم متقابلة، سبيلا للتكتل، وأن يتجهوا الى الله بالدعاء واقامة الصلاة، فتسمو أرواحهم و يشرق عليها نور الحق.

ثم يتجه موسى الى ربه: «ربنا انك آتيت فرعون و ملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك، ربنا اطمس على أموالهم، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم».

ينطلق لسان موسى بدعوة الاخلاص والغيرة على الحق، فتخترق حجب السماء، و يسمع موسى من ربه: «قد أجيبت دعوتكما، فاستقيما ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون» وهكذا تصل القلوب المؤمنة الى نصر الله وتأييده.

الربع السادس:

النظر فى العواقب

• لو تمثل للسارق ــ وقت سرقته ــ قطع يده، أو للزانى ــ وقت زناه ــ حرمانه من الرأفة. أو تمثل للذين يحاربون الله ورسوله و يسعون فى الأرض فساداً قتلهم أو نفيهم من الأرض، لما اقدم سارق على سرقة، ولا مجرم على هتك عرض، ولا مفسد على الافساد. وتلك طبيعة بشرية تتجلى فى المجرمين حينما يأخذهم العذاب، و ينزل بهم النكال.. وهكذا قص الله علينا المرحلة الأخيرة من شأن موسى وفرعون فى تأييد الحق ونصرته، وازهاق الباطل والقضاء على عناصره .

ايمان بعد فوات الاوان

يقتحم فرعون وجنوده البحر وراء موسى وقومه، بقصد الفتك بهم «بغيا وعدواناً» حتى اذا ما أخذ البحر يطبق عليه، تنبه وعيه، وأخذ لسانه يضطرب بكلمة التوحيد «آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل». ولكن هيهات بعد أن كاد للحق، وكان فى سعة من الأمر، والرسول يدعوه، وآيات الله تتلى عليه

• الآيات من ٩٠ الى آخر سورة يونس.

وهو لاهٍ بسلطانه، مغتر بقوته. هيهات وقد نزل القضاء أن يقبل منه ايمان، أو يلحقه عفو و غفران «ءآلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين». ولم يبق سوى أن يجعل منه آية، يعتبر بها كل من يصل اليه نبؤه، و يعرف سنة الله فى المفسدين: «فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية». وتلك هى الخاتمة السيئة التى زلزلت عرش الطغيان. وجدير بها أن تظل ذكراها ماثلة، يتذكر بها كل جبار عاقبة الجبروت والطغيان «وان كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون».

بعد هذا تختم السورة بجملتين من الآيات، فيهما فصل الخطاب من جهة القرآن وحقّانيّته، ومن جهة ثبات الرسول وقوة ايمانه بدعوته.

تأسيس الايمان

أما الجملة الأولى من الآيات، فقد افترضت وقوع الشك فى القرآن وأرشدت الى ما يقطع دابر هذا الشك، ليكون الايمان عن حجة و برهان لا خضوعا لقهر، ولا استسلاما لتقليد: «فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك» و بذلك يخلع الانسان نفسه من طائفة الشاكين المكذبين، الذين اتضحت لهم حجج الحق، وران العناد على قلوبهم، فلم ينتفعوا بالآيات، وحقت عليهم كلمة الله وكانوا من الخاسرين.

وقد ضربت الآيات قوم يونس مثلا، فانهم لما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الخزى ومتعهم بما قدر لهم من نعيم، فهلا يسلك هؤلاء المكذبون سبيلهم، فينجوا كما نجوا، ويمتعوا كما متعوا؟.. ان التكذيب لم يكن مفروضا عليهم، وان الايمان لا يكون عن قهر والجاء، ولو أراد الله ذلك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا، ولكن خلق الله الانسان وجعله مستعدا للايمان والكفر، تصحيحا لقاعدة التكليف والجزاء.. وتلك سنته التى ربط فيها بين الأسباب المقدورة، والمسببات المطلوبة: «وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون».

واذن الله، سنته ونظامه فى ايمان من يؤمن وكفر من يكفر، عن اختيار وتقبل لا عن قهر والجاء، واذا كان الشأن مبنيا على ما يختار المرء لنفسه، فسبيله أن ينظر و يفكر، فمن أقبل بقلبه على المعرفة، آمن وعرف، ومن أعرض عن النظر

والتدبر فماذا تنفعه الآيات والنذر، ليس له فى سنتنا سوى ما قصصنا من أخبار الذين خلوا من قبل «قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين، ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين».

ثبات الرسول

ثم أخذت الجملة الثانية من الآيات، تصور ثبات النبى على دعوته وتؤكد انفعال نفسه بها، انفعالا يبطل ما يوجه اليه من مساومة أو محاولة، وفى هذا السياق، تقرر الآيات الأصول الأولى للدعوة فتذكر تطهير القلب من عبادة غير الله، واخلاص العبادة له وحده وربط القلب به عن طريقه المستقيم الذى لاعوج فيه ولا انحراف. ثم توصد باب التوجه الى غيره بالعبادة، وتحذردعاءغيره أيا كان، وترشد الى أن غيره أيا كان، لا ينفع ولايضر، والعاقل يجب أن يعرف الحقائق، وأن يركن اليها، فكما لايعبد غير الله لا يدعوغير الله، ولا يطلب من سواه، فهو صاحب الأمر، وصاحب التصريف، ولم يجعل لأحد من عباده حق التصرف فى خلقه: «وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو، وان يردك بخير فلا راد لفضله».

هذا هو الدين الحق، أوحاه رب الناس الى الناس، واضح المعالم، بين المسالك، فمن اهتدى به فقد أنقذ نفسه، وحصل سعادته، ومن ضل واتبع الأهواء فقددنّس نفسه وعرضها للخزى والنكال.

أما أنت يا محمد فسر فى طريقك وثبت قلبك: «واتبع مايوحىٰ اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين».

سورة هود

الربع الأول:

• هود عليه السلام، هو أول رسول الى قوم عاد. وعاد أول أمة من نسل سام بن نوح، وقد تحدث القرآن كثيرا عن هود فيمن تحدث عنهم من رسل الله الكرام، وقد ذكر باسمه خمس مرات فى هذه السورة التى سميت به، وقالوا: انه أول من تكلم باللغة العربية .

وسورة هود من السور المكية، شأنها كسائر المكى: تقرير أصول الدين، واقامة الأدلة عليها، ورد الشبه التى كان يثيرها المعارضون حول الدعوة وصاحبها عليه السلام.

عناصر الدعوة الالهية

والمتدبر، للسورة يرى أنها. أولا: قررت عناصر الدعوة الالهية ــ وهى: التوحيد، والرسالة، والبعث ــ عن طريق الحجج العقلية، مع الموازنة بين النفوس المستعدة للايمان، والنفوس النافرة منه. وقد عرضت ذلك فى أربع وعشرين آية يختم بها الربع الأول منها: «مثل الفريقين كالأعمى والأصم..»

ثم أخذت تتحدث عن جملة من الرسل السابقين، بيانا لوحدة الدعوة الالهية، وتسلية للرسول عليه السلام، وانذاراً للمكذبين، واستغرق ذلك الى نهاية

• الآيات من أول السورة الى نهاية الآية ٢٣ من سورة هود.

الآية التاسعة والتسعين: «وأتبعوا فى هذه لعنة و يوم القيامة بئس الرفد المرفود» ثم ذكرت فى اثنتى عشرة آية بالوعد والوعيد، و بسنة الله فى أخذ الظالمين. وختمت بتوجيه الخطاب الى النبى ومن تاب معه فى مثلها (اثنتى عشرة آية) مرشدة الى منهاج السعادة والفلاح. وتبتدئ من قوله تعالى: «فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا» الى نهاية السورة: «ولله غيب السموات والأرض واليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون».

كتاب محكم

هذا هو موجز ما اشتملت عليه سورة هود، وقد بدأت فوصفت الكتاب بالاحكام، فلا يتطرق اليه خلل. و بالتفصيل فليس فيه خفاء و بأنه تنزيل الحكيم الذى لايضل، الخبير الذى لا تخفى عليه مصلحة. تأخذ فى تقرير الوحدانية والبعث، وان الله سبحانه هو وحده المرجع فى طلب المغفرة وقبول التوبة، وان مهمة الرسول، هى الانذار والتبشير: «ألا تعبدوا الا الله انني لكم منه نذير و بشير، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى و يؤت كل ذى فضل فضله. وان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير. الى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير».

وفى أثناء ذلك تشير الى ما يحصل عليه الانسان من سعادتى الدنيا والآخرة اذا هو لبى الدعوة وآمن بها، وما يصيبه من خسران وشقاء اذا هو استمر على كفره واعراضه، ثم تصور لنا حالة المعرضين فى محاولتهم انكار الحق، وانطوائهم فى ثيابهم على صدورهم مع وضوح الأدلة فى أنفسهم وفى الآفاق: «وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها». «وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام».

ثم ترشد الى أن اعراضهم عن الحق لم يكن لخفائه، وانما هو لاضطراب نفوسهم وترددها بين يأس الضراء و بطر النعماء، ولو انهم عصموا أنفسهم من ذلك وعرفوا الحق واستقر فى قلوبهم، لكان لهم من صبر الايمان وصالح الاعمال ما يطمئنهم على حسن العاقبة: «الا الذين صبروا وعملوا الصالحات، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير». ولكن القوم مع هذا البيان الواضح ما كانوا يتركون احراج الرسول باقتراح ما لا يدخل تحت قدرته من الآيات، فاخذت الآيات فى تسليته،

و بيان ان فى القرآن الغناء لمن أراد أن يؤمن، وليس على الرسول الا أن يقوم بمهمته، وهى التبليغ والانذار، وان تكذيبهم إياه لم يكن لطلب حجة هم فى حاجة اليها. وانما هى الدنيا، ملكت عليهم قلوبهم، وصرفتهم عن النظر فى حجة الله التى أنزلها بعلمه، وسيرون ما ينزل بهم من جزاء: «أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار، وحبط ما صنعوا فيها و باطل ما كانوا يعملون». ثم تزيده تثبيتا على حقيقة الدعوة بأنها دعوة يؤمن بها من طهر قلبه، واتجه اليها والى نفسه فاتخذ منها البرهان على صدقها، ثم رجع الى تاريخ البشرية وعرف انها رسالة الله الى خلقه: «أفمن كان على بينة من ربه و يتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة أولئك يؤمنون به». وما يكفر به الا الذين حرموا من ادراك الوجدان و برهان العقل، وعميت عليهم أنباء الأولين: «فلا تك فى مرية منه انه الحق من ربك».

ثم تعود الآيات فتصف المكذبين بجملة من الأوصاف وترشد الى سوء مصيرهم، وتسجل مضاعفة عذابهم وحرمانهم من النصير المدافع. ثم ختم عليهم بقوله تعالى: «أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون». ومن شدة التنكيل بهم تضع أمام أعينهم عاقبة المؤمنين: «أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون». ثم تضرب المثل للفريقين بما يعرفون به مقدار التفاوت بينهم: «مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا، أفلا تذكرون».

الربع الثانى:

* هذا هو الفصل الثانى من سورة هود، ومن سنة القرآن أن يتبع تقرير الدعوة بما يدل على انها بأصولها وأدلتها ونتائجها فى الدنيا والآخرة، هى دعوة الألوهية الوحيدة، التى بعث الله بها جميع رسله من مبدأ الخليقة الى مرحلتها الأخيرة، مرحلة الاكمال والاتمام، وهى مرحلة محمد عليه الصلاة والسلام. وان محمدا لم يكن بدعا فيها، كما أنه لم يكن بدعا فى المقابلة بالتكذيب من قومه، وانما شأنه فى الدعوة وفى اعراض قومه عنه، شأن اخوانه السابقين مع أممهم، وسيكون

* الآيات من ٢٤ الى نهاية الآية ٣٩ من سورة هود.

شأنه، وشأن قومه فى العاقبة شأنهم وشأن أقوامهم: «فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم، قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين، ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين».

وفى هذا السبيل ذكرت السورة نوحا وقومه وهودا وقومه، وشعيبا وقومه، وموسى وفرعونه. وفى كل قصة من هذه القصص عبرة أو عبر، جدير بدعاة الحق فى كل زمان ومكان ان يملأوا بها قلوبهم، فيطمئنوا الى نصر الله وتأييده، وجدير بالمكذبين أن يتمثلوها حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب اسلافهم من قبل.

قصة الاب الثانى للبشرية

وبدأت السورة بالأب الثانى للبشر، وهو نوح عليه السلام، فذكرت انه دعا قومه الى توحيد الله، وانه أنذرهم الشقاء الابدى اذا هم اعرضوا عن دعوته، واستمروا على عبادة الأصنام من دون الله: «انى اخاف عليكم عذاب يوم اليم» وذكرت ان القوم طعنوا فى رسالته، فقالوا: انه بشر مثلهم، والبشر لا يصلح فى نظرهم أن يكون رسولا، وقالوا: انه لم يجب دعوته الا أراذل القوم يريدون الطبقة الدنيا «الفقراء» ولو كانت حقة لسارع اليها أرباب المصالح والثراء «الطبقة العليا»، وانه لا ينبغى لهم أن يجعلوا انفسهم وهم أصحاب المال والسلطان فى مستوى هؤلاء الفقراء، يجمعهم واياهم دين واحد، ويخضعون معهم لسلطان واحد، وانهم لا يرون لهم، ولا لرسولهم من المزايا ما يهون عليهم ان ينزلوا بأنفسهم الى مشاركتهم فى اتباعه والايمان به، ولعل هذا الموقف من قوم نوح، هو أول بعث لفكرة الطبقات، التى تقلب بها المجتمع البشري ـ ولا يزال ـ على كتل من الجمر، محرقة للفضائل، مضيعة للكفارات، فتى يفيق العالم وهو فى آخر مراحل الرقى، ويخلص نفسه من هذه العلة المزمنة التى اندفع اليها وهو فى طور الطفولة الذى لا رشد فيه؟..

ثم جاءت الآيات تفند هذه الطعون، وتقتلع هذه الفكرة من أساسها وتقرر أولا أن صاحب الدعوة، قد توافرت لديه أدلة الايمان بها، وليس من شأنه أن يكرههم عليها اذا خفيت عنهم، وهو لا يطلب منهم مالا ولا عزة ولا ترتبط دعوته بالمال ولا بالسلطان، وانما يدعوهم اليها طلبا لخيرهم. وعملا على مصلحتهم، فعلام هذا الموقف الذى ان دل على شيء فانما يدل على التمرد والبعد عن فهم الحقائق؟.. والا فكيف ينقمون منه ان أجاب الفقراء دعوته؟ وهى دعوة الله

الذى لا يزن خلقه بميزان الغنى والفقر، ولا بميزان القوة والضعف وانما يزنهم بمقياس الصفاء والاخلاص، والايمان بالحق الذى يدعو اليه. كيف ينقمون منه هذا و يطلبون منه أن يطردهم: «وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون، و يا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم»؟.

ان النبوة ليست أكثر من اصطفاء الله لمن يقوم بتبليغ رسالته، وليس من لوازمها، بل ولا يصح أن يكون من لوازمها أن يكون الرسول ملكا، أو أن يكون عنده خزائن الله، أو أن يكون محيطا بغيب الله فهو بشر، يقف عند حدود البشرية، لا يتجاوزها الا بمقدار ما يوحى اليه، وهو بذاته لا يعلم الا ما يعلمه البشر، ولايقدر الا على ما يقدر عليه البشر، وان الله قد كلفه بتبليغ رسالته، ولم يجعل الناس أمامه فى التبليغ الاكما جعلهم فى الخلق، سواسية لا طبقات، ولا أسياد، ولا أراذل «ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا، الله أعلم بما فى أنفسهم، انى اذا لمن الظالمين».

سفاهة قوم نوح

وقف نوح مع قومه ألف سنة الاخمسين عاما، يقيم الحجة، و يدفع الشبهة حتى أخرسهم الحق ولم يجدوا منفذا للقول. فراحوا يستعجلون العذاب الذى توعدهم به، شأن الموغل فى العناد، يلقي بنفسه فى اليم، أوفى النار، حتى لايقال: غلب على أمره، وخضع لغيره، ولا يدرى أنه يسجل على نفسه نهاية الخزى في الاعراض عن الحق تبعا لشهوة باطلة، أو خيال فاسد: «يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين»، فيقرر لهم نوح الحق الذى يؤمن به «انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين».

وتأتى المرحلة الأخيرة فيعلم الله فيها نوحا انه لن يؤمن من قومه الا من قد آمن، فاطو صفحة جهادك معهم، واتخذ وسيلة النجاة لك ولقومك: «واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون» فيمتثل نوح الأمر، و يصنع الفلك «وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه»، فيؤكد لهم ان عاقبتهم فى موقف السخرية والعذاب، هى عاقبتهم فى موقف السخرية بالرسالة. سيصيبهم خزى العذاب، كما أصابهم خزى الحجة والبرهان. وان من العذاب ما يرفع

صاحبه الى الهامات، وهو عذاب الرسل والمجاهدين فى سبيل الحق يصيبهم على أيدى الطغاة الظالمين، وهو عذاب مستعذب، مشرف لصاحبه، يعقبه نعيم مقيم..

ومن العذاب ما ينزل بصاحبه الى أحط الدرجات، و يكون مثلا يشفى صدور المؤمنين، و يزعزع كيان المبطلين، وهو عذاب الاعراض عن الحق والكيد لأهله وهو عذاب الخزى الذى يعقبه عذاب دائم اليم «فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم».

الربع الثالث:

نبوة الايمان هى الحقة

* صنع نوح السفينة، وأتم عدته، ونفذ ارشاد الله، وحمل فيها مع أتباعه من كل صنف زوجين اثنين، وفار التنور، وتفجر الماء حتى طغى. وأخذت السفينة تجرى بهم فى موج كالجبال «ونادى نوح ابنه وكان فى معزل: يا بنى اركب معنا، ولا تكن مع الكافرين» فأبى الولد، وعزف عن دعوة أبيه، واعتقد انه يعتصم بغير الله، ودفعت نوحاً شفقة الأبوة الطبيعية، فطلب من الله انجاز وعده فى أهله معتقدا أن ابنه من أهله، الذين وعد الله بنجاتهم مع نوح: «ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين» فيرد الله عليه بأن البنوة الطبيعية لا مكانة لها عند الله ما لم تشد أزرها بنوة الحق، والاعتصام بأمر الله «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان»، «لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم»، وهذا فى رسالة محمد يؤكد و يفصل ماجاء فى رد الله على نوح: «يا نوح انه ليس من أهلك، انه عمل غير صالح» و يدرك نوح زلته و يلتمس من ربه المغفرة: «انى اعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين» فيغفر الله لنوح زلته، و يتم عليه وعلى من معه نعمته: «وقيل بعدا للقوم الظالمين».

---

* الآيات من ٤٠ الى نهاية الآية ٦٠ من سورة هود.

الطوفان

وقع الطوفان، وذهب بأعداء الله، أعداء الحق، وتلك عبرة القصص فى القرآن، وقد صرف الناس عنها بحوث وضعت فى الكتب والتفاسير، شغل الناس بها عن العبر والعظات، وكان من ذلك الكلام الكثير فى عموم الطوفان وخصوصه، وعموم رسالة نوح وخصوصها، فمن قائل: بأن الطوفان لم يكن عاما، وان التناسل البشرى لم يكن خاصا بذرية نوح، ولم يكن نوح الأب الثانى للبشر، وأن رسالته كانت خاصة بقومه بحكم السنة الالهية فى ارسال الرسل الى أقوامهم. ومن قائل بأنه لم يكن بسطح الأرض سوى قوم نوح الذين لم يؤمن منهم الا قليل، وهم الذين كانوا معه فى السفينة، وان رسالته كانت عامة بحكم انحصار الناس فى قومه لا بحكم انه مرسل لهم ولغيرهم، وان نوحا هو الأب الثانى للبشر، تناسلت البشرية من ذريته فقط بعد الطوفان، وان الطوفان كان عاما للمعمور من الأرض اذ ذاك.

هكذا اختلف الناس وأكثروا من القول.

رأى الامام الأكبر

والذى نراه أن المسألة من المعارف البشرية التى تركها الوحى لبحث الانسان، لا تفسيرا للقرآن، وليس من مهمة القرآن أن يحدد الأوضاع، ولا أن يعين الوقائع، وانما مهمته الارشاد الى ما تدل عليه القصة من جهات العظة وأنواع العبرة. وعلى كل فـ «نوح» أرسل لقومه فقط، أما انه كان فى المعمورة غير قومه ولم يرسل اليهم، أو انه لم يكن فيها سواهم، فهذا شيء ليس له تأثير فى هدف القصة، ولا يمس اختصاص محمد عليه الصلاة والسلام بعموم الرسالة لقومه ولغير قومه الموجودين على سطح الأرض، ومن سيوجد عليها الى يوم الدين: «قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا».

هذا.. وفى العظة المقصودة من هذا القصص، وفى دلالته على أن القرآن من عندالله، يختم الله قصة نوح بقوله لنبيه على مسمع من القوم: «تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين».

قصة هود

ثم تتبع الآيات قصة نوح، بقصة هودعليه السلام، فتذكر دعوته أيضا الى قومه، وانه أخذ بهم الى سبيل الخير والقوة عن طريق عبادة الله وحده، واستغفارهم مما هم فيه من الطغيان: «استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا و يزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين». وتذكر معارضة قومه له وانكارهم عليه، وان آلهتهم أنزلوا به الجنون والاضطراب، فيتبرأ هود من آلهتهم و يتحداهم، و يستنهض همتهم فى أقصى ما يستطيعون من قوى الكيد، وانه سوف لايعبأ بهم ولا بجمعهم: «انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها»..

وتذكر بعد ذلك خاتمة أمره مع قومه على حسب سنة الله فى نصرة أوليائه، وخزى أعدائه:

«ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ. وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد. وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة و يوم القيامة الا أن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود».

سورة الكهف

تقديم:

* سورة الكهف هى السورة الثالثة من سور خمس في القرآن الكريم، بدئت بـ «الحمدلله» قبلها سورتان هما الفاتحة، والانعام، وبعدها سورتان هما سبأ، وفاطر. و سورة الكهف تضع حدا عن طريق التربية الروحية لضلال قديم الفه الناس فى تقويم الحياة، ذلك هو تقدير القيم الانسانية بحظوظ المال و الثراء و الجاه، و تبين أن ما على الأرض من زينة و نعم مادية انما كان طريقا لاختبار الناس أيشكرون أم يكفرون؟.. و ليس هو كل ما يقصد من الحياة، بل هناك ما هو أسمى منه و أرفع: «انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا».

قصص و أمثلة للعظة و العبرة

و فى سبيل ذلك نقص ثلاث قصص لكل منها دلالتها الخاصة فى تقدير الحق بذاته، و ارتباطه بطهر العقيدة و نقاء النفس لا بالمال و لا بالحياة: قصة أصحاب الكهف، و هى قصة التضحية بالنفس فى سبيل العقيدة: «انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى». وقصة موسى مع العبد الصالح، وهي قصة التواضع الذي لا يعرف ـ في سبيل العلم والتكمل بالمعرفة ـ التكبر ولا الغرور: «هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا»؟.. و قصة العدل و اغاثة الضعيف، و هى

---

* تقدمة عامة لسورة الكهف.

قصة ذى القرنين الذى أنصف بعدله و قضى بقوته على المفسدين.

و كما استخدمت السورة فى سبيل هدفها هذه القصص الثلاث استخدمت فيه من جهة أخرى أمثلة ثلاثة، بينت بها ان الحق لايرتبط بكثرة المال و لابعلو الانسان، و هو مثل الغني المكاثر بماله و الفقير المعتز بايمانه: «واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين..»، و مثل الحياة الدنيا و ما يلحقها من فناء: «واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء» و مثل ابليس و ما اصابه من الطرد و الحرمان جزاء تكبره و استعلائه: «واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس». و هنا حذرت الآيات أبناء آدم أن يتخذوه و أعوانه أولياء من دون الله و بينت لهم انه و ذريته أعداء لهم من أول النشأة، يدفعونهم الى الشر و يكيدون لهم عن طريق الاغواء، و يصرفونهم عن أرباب النفوس الزكية و يطلبون اليهم أن يطردوهم عن مجالسهم، لما هم عليه من فقر و ضعف.

ثم تبين أن هؤلاء الذين يحاولون اضلال الناس عن الحق ليس لهم فى شأن الله و نظام خلقه من أمر، فهو لم يحضرهم وقت أن خلق و نظم، و هو لم يعتمد عليهم فى فعل أو يشركهم فى رأى، فكيف يجعلون لأنفسهم سلطان التوجيه؟.. و كيف تروج عند الناس وسوستهم..؟ «ما أشهدتهم خلق السموات و الأرض و لاخلق أنفسهم و ما كنت متخذ المضلين عضدا». فتخلوا عنهم كما سيتخلى عنهم شركاؤهم و يسلمونهم الى النار «ولم يجدوا عنها مصرفا». ثم تشير الآيات الى أن اعراضهم عن الحق لم يكن ناشئا عن حاجة الحق الى دليل و انما هو الطغيان الذى يمنع صاحبه من الايمان، و يجعله يجادل بالباطل ليدحض به الحق و يحول بينه و بين التفكير في العاقبة فلايتذكر الا اذا استمر به العذاب أو فاجأته سنة الأولين، تلك سنة المنكرين من قبل، وسيراها المنكرون من بعد.

ثم تذكر الآيات انه لولا رحمة الله بعباده و انه يمهلهم رجاء التوبة لعجل لهم العذاب، ولكنه جعل لهم موعدا لن يجدوا من دونه مصرفا عن العذاب «و تلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا».

وجوب التواضع فى طلب العلم

ثم تذكر الآيات قصة التواضع فى طلب العلم الماثلة فيما جرى بين موسى و

العبد الصالح: فان موسى مع علو شأنه فى المعارف الالهية لم يمنعه علوه عن تحمل المشاق فى سبيل العلم دون نظر الى مكانة من يريد التعلم منه، وفى هذا ما يخفف حدة الكفار على الفقراء، و يرشد الى أن العلم أسمى من المال، و انه لاينبغى أن يتخذ فقر العلماء مانعا من السعى اليهم، و تزكية النفس بعلمهم، فهذا موسى نبى الله وكليمه، لايكاد يعلم بالعبد الصالح و بما عنده من علم حتى يجمع أمره على الوصول اليه كيفما كان الطريق «لاأبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا».

و التقى موسى بالعبد الصالح و قدم له نفسه مستأذنا فى أن يجعل نفسه تبعا له ليعلمه: «هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا». فيطلب منه العبد الصالح التسليم فيما يرى و البعد عن الجدل، فيطمئنه موسى على غاية الخضوع: «ستجدنى ان شاء الله صابرا و لاأعصي لك أمرا».. فيعده العبد الصالح بالبيان اذا هو التزم الشرط: «فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا». و على هذا التعاقد ركبا السفينة، و كان أول ما فوجيء به موسى أن العبد خرقها، و كان لخرقها هول فى نفس موسى أنساه الالتزام السابق، فأنكر عليه، ثم عاد يعتذر بالنسيان. و كان الحادث الثانى أن قتل العبد الصالح غلاما، فعاد موسى الى الانكار و عاد العبد الصالح الى اللوم، و موسى الى الاعتذار، و هدده صاحبه بقطع العلاقة ان عاد الى الثالثة، و عاد الى الثالثة فأنكر عليه اقامة الجدار المائل، و هو لقوم لم يحسنوا اليهم، وهنا نفذ العبد الصالح تهديده لموسى و قال: «هذا فراق بينى و بينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا».

الربع الأخير

سر الأحداث التى أنكرها موسى

• وفى هذا الربع يفي العبد الصالح لموسى بما التزم، فيكشف له عن سر الأحداث التى فعلها و أنكرها عليه موسى، و هى خرق السفينة، و قتل الغلام، و

• الآيات من ٧٩ الى آخر سورة الكهف.

الاحسان لقوم لايعرفون قيمة الاحسان. و قد كان منشأ الانكار عند موسى أنه لم يعرف سببا يبيح اتلاف مال الغير و لاقتل النفس، و لاتحمل المشقة لقوم لايطعمون المحتاج. و يدور البيان على أن وراء الظاهر واقعا يعلمه العبد الصالح و لايعلمه موسى، و هو الذى حمل العبد الصالح على فعل ما فعل، وذلك الواقع هوأن ملكا ظالما كان يتتبع السفن الصالحة فى البحر يغتصبها من أهلها، فرأى العبد الصالح أن يعيبها فتسلم لأهلها الفقراء: «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر». و أما الغلام، فقد علم العبد الصالح أن بقاءه مفسد لأبو يه، فاحتفاظا بسعادتهما، وابقاءً على ايمانهما قتل جرثومة شرهما: «فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة و أقرب رحما».

و فى حادث الغلام يتجلى بوضوح معنى قوله تعالى: «فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا و علمناه من لدنا علما». و معنى قوله تعالى: «وما فعلته عن أمرى» فالله واسع العطاء يهب ما يشاء من رحمته و علمه لمن شاء من عباده.

ولامتمسك لمن يدعون علم الغيب بهذه القصة، فان أحد طرفيها كان نبيا، يوحى الله اليه و لايقره على ضلال و لابهتان. و من أين لهم مثل موسى نبى يوحى اليه، و تجرى حوادثهم على يديه.

و اما الجدار فليس الشأن فيه لأهل القرية، و انما هو لأيتام كان لهم تحته أموال، فحافظة عليها أقام العبد الصالح الجدار. و تلتقى أحداث العبد الصالح الى حد ما، مع قاعدة ارتكاب «أخفّ الضررين» التى تبيح للانسان أن يقدم على فعل فيه شر ما، متى علم أن فيه خيرا أكثر من شره و قديما قيل: «شر قليل فى سبيل خير كثير خير كثير».

و لقد عرف موسى من هذه الرحلة أن وراء الظاهر الذى يحيط به الانسان فى عادته باطنا تشرق عليه فيه أنوار الحقائق، و بذلك يأخذ نفسه بالصبر فى تجريد النفس عن التأثر بالعلائق المادية، و المنغصات البشرية، و يصفو لله فى الدعوة الى الله.

نبأذى القرنين

ثم تقص الآيات نبأ ذى القرنين و هو ملك مكن الله له بتقواه و عدله أن

يبسط سلطانه على قرنى المعمورة شرقا و غربا، وكان من عدله الذى تقوم عليه الحياة و تسعد به الجماعة ذلكم المبدأ العظيم.

«أما من ظلم فسوف نعذبه، ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا. و أما من آمن و عمل صالحا فله جزاء الحسنى و سنقول له من أمرنا يسرا».

ولا تصلح رعية لم يضرب فيها على أيدى الظالمين، كما لا تصلح رعية لايلقى المحسنون فيها جزاء احسانهم، فبخس احسان المحسن لايقل عن ضرر الجماعة في محاباة المسيء، كلاهما ينزل بالجماعة الى الحضيض. فاذا كانت محاباة الظالم تغرى بالظلم فان بخس الاحسان يحرج الصدر و يميت قوة النشاط. و تلك هى العبرة الخالدة فى هذا الجانب من قصة ذى القرنين..

اما الجانب الآخر من قصته: فهو ماثل من قوته و اعتماده على الله فى اغاثة المستضعفين و نصرتهم و انقاذهم من افساد المستعمرين المغيرين عليهم و على بلادهم بدون حق.

يصل ذوالقرنين الى قوم لا تساعدهم لغتهم على حسن التفاهم معه، ولكنه يفهم شكواهم والتجاءهم اليه: «قالوا ياذا القرنين ان يأجوج و مأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا و بينهم سدا»؟.. فتدفعه عاطفة الخير الى التلبية معتمدا على ربه قال: «مامكنى فيه ربى خير». و يطلب منهم أن يتحملوا نصيبهم من المعونة باخلاص و قوة فلايتواكلوا. و لايلقوا بكل أمرهم عليه، و يقيم ذوالقرنين السد بين الجبلين، فلايجد المفسدون اليهم سبيلا: «فما اسطاعوا أن يظهروه و ما استطاعوا له نقبا».

واجب الراعى والرعية

وهذا شأن الملوك المخلصين المحبين للشعوب، ولا تقبل دعوى خدمة الشعوب الا اذا اقترنت بالصدق فى عمل حازم يقى الشعوب ضرر المفسدين، و واجب الأمة مع هؤلاء المخلصين أن يبذلوا فى معونتهم مااستطاعوا بقوة و اخلاص. أما دعوى خدمة الشعوب مع الكيد لها و تأليب الأعداء عليها، فهى دعوى يجب أخذ الحيطة منها و واجب الأمة حينئذ هو اعتمادها على نفسها وعلى قوتها النابعة من الايمان وحب الوطن.

ثم تقرر الآيات ان الله بسننه يترك الناس فى هذه الحياة يتدافعون و يتنافسون: «وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض». ويستمر شأنهم كذلك الى يوم الدين فتنكشف لهم الحقائق بعد أن كانت أعينهم فى غطاء، وبذلك تحذر الكافرين وتعلن أوصاف الآخرين، وتردها الى الكفر بآيات الله و الاستهزاء برسله. ثم تذكر جزاء المؤمنين الصالحين، وتقرر سعة علم الله وسلطانه، و عجائب كونه و أسرار ملكه، ثم تأمر الرسول بتقرير بشريته، و أن يجمل للقوم رسالته: «قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا».

سورة مريم

الربع الأول:

كهيعص

• سورة مريم من السور المكية التى تقرر توحيد الله وقدرته وتنزيهه عما لايليق به، وتقرر عقيدة البعث و الجزاء. و هى احدى تسع و عشرين سورة بدئت بحروف هجائية. و قد لوحظ ان هذه السور تتحدث عن غريب غير مألوف، كالقرآن، و أنباء الغيب، و التنويه بشأن القلم و الخلق، و الايجاد على طريقة غير مألوفة.

و لعلها لهذا بدئت كلها ببدء غير مألوف.. و هو تلك الحروف الهجائية التى تنطق بأسمائها لابمسمياتها. و ذلك ليكون البدء الغريب قرعا للأسماع و اعدادا لتلقى غرائب لا تعرف السنن المألوفة .

زكريا ويحيى

وقد ذكرت سورة مريم من تلك الغرائب قصتين: قصة نبى الله زكريا و ولده يحيى، و قصة السيدة مريم و ولدها عيسى، و أرشدت فى أولها ان ما ستتحدث به عن زكريا و اجابة دعائه، اثر لرحمة الله به، و لاريب أن الخلف الصالح، الذى يحتفظ بمكانة أبيه و يقوم بمهمته من بعده، امتداد لحياة الأب و استمرار لأثر يتحقق نفعه فى الممات، كما تحقق نفعه فى الحياة.

• الآيات من أول السورة حتى نهاية الآية ٣٦.

الدعاء المجاب

عرف زكريا بدراسة أحوال أقاربه أن ليس فيهم من يطمئن اليه فى القيام بدعوته، ورأى رحمة ربه لمريم وهى فى كفالته ــ كما تحدثت عنها سورة آل عمران ــ فشجعه ذلك على دعاء ربه أن يمنحه على كبره وليا يرثه فى مهمته، فابتهل بعجزه وضعفه وخوفه من أقاربه: «رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا»، «وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا». فاخترق دعاؤه الحجب واستجاب له ربه: «يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى»، وأكمل البشرى بالخلال الطيبة التى صاغ بها عطيته، فأخذ السرور من زكريا مأخذه، وعاد الى المناجاة فرحا مستبشرا: «رب أنى يكون لى غلام». فيسمع من ربه الكلمة النافذة: «هو على هين، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا».. فيعود زكريا ملتمسا علامة يعرف بها حصول الحمل، ويتعجل بها السرور الواقعى: «رب اجعل لى آية، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا». وقد جاءته هذه الحالة فكان لايخاطب قومه الا بالوحى والاشارة.

وعبرتنا من قصة زكريا أن أقرب الدعاء الى الاجابة ما كان نابعا من القلب وخفيا حتى عن النفس، ومقترنا بدلائل الذلة والحاجة، وأخيرا ما كان مقصودا به وجه الله والنفع العام.

قصة مريم

وتذكر السورة قصة مريم وقد آخى القرآن بين القصتين فى غير موضع، وقصة مريم أدخل فى الغرابة من زكريا. ولذلك ذكرت قبلها تمهيدا لها، وقد تحدثت سورة آل عمران عن ولادة مريم وبشارتها بعيسى وبشأنه فى بنى اسرائيل. وتحدثت سورتها هذه عن حملها بعيسى، وعن موقفها حينما تمثل لها روح الله بشرا سويا، وعن خواطرها النفسية حينما بشرها بالغلام: «أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا». ومضت الخواطر تلعب بنفس مريم حتى جاء زمن الوضع فتضاعف همها، واشتد حزنها، لالشك فى نفسها، وانما لتقدير ظنون الناس فيها «ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا». فيثبتها الله بآياته، وينزع منها عوامل الاضطراب والخوف: «فناداها من تحتها الا تحزنى قد جعل ربك تحتك

سريا و هزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا» ولكن مريم لا تزال حاجتها النفسية تلح فى معرفة ما تجيب به قومها. و هى لنفسها أعرف، و لا تملك من أمر الناس شيئا، فتلبيها الرحمة الالهية: «فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما». وقد كان من قومها ما قدرت: «يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء و ما كانت أمك بغيا». فالتزمت الصمت و أشارت الى كلمة الله، فأجابهم بلسان بين واضح: «انى عبد الله آتانى الكتاب، و جعلنى نبيا، و جعلنى مباركا أينما كنت، و أوصانى بالصلاة و الزكاة ما دمت حيا، و برا بوالدتى، و لم يجعلنى جبارا شقيا، و السلام على يوم ولدت، و يوم أموت و يوم أبعث حيا».

بذلك تمت نعمة الله على مريم كما تمت على كافلها من قبل. و هكذا أجمل عيسى و هو فى المهد رسالة السماء الى الأرض. «ذلك عيسى ابن مريم قول الحق» ولكن الأهواء أخذت بالناس فى شأنه الى جهات متباينة، فمنهم من قال به على مريم بهتانا عظيما، و منهم من قال به على الله شيئا ادا: «ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه، اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون و ان الله ربى و ربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم».

الربع الثانى:

قصة ابراهيم

* وتذكر الآيات، بعد قصتى زكريا ومريم، قصة ابراهيم، ولابراهيم مكانة انعقدت عليها القلوب، و قد عنى القرآن بالحديث عنه عناية خاصة. فتحدث عن امامته، و عن بنائه البيت، و دعوة الناس الى حجه، و تحدث عن رحلته، و أسلوبه فى الدعوة و الحجاج، و تحدث عن كرمه، و تضحيته بنفسه و ولده، و تحدث عن وصيته لذريته، و تحدث عن علاقة محمد به، و بين انه أثر دعوته، و ان رسالته من رسالته. و من ذلك كله اتخذه القرآن حجة لمحمد على مناوئيه من مشركين و كتابيين.

* الآيات من ٤١ الى نهاية الآية ٦٢ من سورة مريم.

و قد قال بعض العلماء فى ابراهيم: «كان فتى الفتيان، سلم قلبه للعرفان و لسانه للبرهان، و بدنه للنيران، و ولده للقربان و ماله للضيفان، و أهله للوديان و اقرأ كل ذلك فى القرآن» .

بهذه ونحوها خلد الله ابراهيم: «واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا». و كان من مظاهر ذلك انه ما من مسلم و لا كتابى و لامشرك الا و هو يقدس ابراهيم، و ما من مسلم يصلى ليلا أو نهارا فرضا أو نفلا، الا و يدعو الله فى صلاته أن يصلى و يسلم على محمد، و على آله، كما صلى و سلم على ابراهيم و على آل ابراهيم. و هذا هو ابراهيم الذى يأمر الله نبيه أن يذكره لقومه، فيخففوا من حدتهم، و أن يذكره لنفسه فيتأسى به، و يهتدى بهديه.

أسلوب ابراهيم فى الدعوة

و تخص سورة مريم جانبا من جوانب ابراهيم هو أسلوب الدعوة با لحلم الواسع، والأدب الجم، الذى من شأنه الاستيلاء على العقل المعاند و النفس العازفة، مع وضوح الحجة و قوتها، و التنبيه على مواضع الخلل و الفساد: «يا أبت لم تعبد مالايسمع و لايبصر و لايغنى عنك شيئا، يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا، يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا، يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا». و هكذا يسلك ابراهيم فى دعوة أبيه طريق الحكمة و الموعظة الحسنة، فيقابله أبوه بالشدة و الانكار و التهديد: «لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا» فيقابل ابراهيم تهديد أبيه بالسلام عليه و الدعاء له: «سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا. و أعتزلكم و ما تدعون من دون الله و أدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا». و هكذا تقف البنوة البارة من الأبوة القاسية. و من قبل وقفت هكذا الأبوة الرحيمة مع البنوة العاقة، دعا نوح ربه لنجاة ولده، فعاتبه ربه و بين له أنه ليس من أهله، ولكن للأبوة مكانتها، فلم ينكر الله على ابراهيم سلامه على أبيه ولادعاءه له، احتفاظا باحترام البنوة للابوة وان كانت مشركة ضالة. «ووصينا الانسان بوالديه حسنا و ان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما». يعتزل ابراهيم أباه و قومه، و يلقى بنفسه فى أحضان ربه، فيهبه

الذرية الصالحة التى تسير فى طريقه و تواصل دعوته: «فلما اعتزلهم و ما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق و يعقوب وكلا جعلنا نبيا».

رسل كرام

ثم تقفى الآيات بذكر موسى و ما كان عليه من صفاء النفس و اخلاص القلب لله، و ما خصه الله به من المناجاة و التكليم و التقريب: «وقربناه نجيا»، ثم تذكر اسماعيل، و ما كان عليه من الصدق مع نفسه، و مع ربه و مع أسرته التى هى درعه فى دعوته، و الصدق حلية الايمان و سبيل النجاح، و طريق الخير و الفلاح.

و تذكر ادريس و ما كان فيه من مكانة الصديقية و الرفعة عند الله.

و بعد أن تذكر الآيات هؤلاء الرسل كلا بخاصته، و تشد بذكراهم ازر الرسول فى دعوته، تعود فتجمعهم فى اطار من الشرف الالهى. و تنسبهم جميعا الى آدم. فتربط بينهم برباط الرحم الانسانى العام، كما ربطت الرسالة بينهم برباط الوحى الالهى.

ثم تشير الى الرباط النسبى الخاص بذرية نوح و من كان معه فى السفينة، و الخاص بذرية ابراهيم و اسرائيل، ثم تذكر امتيازهم الدينى و مكانتهم الربانية: «أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم و ممن حملنا مع نوح و من ذرية ابراهيم و اسرائيل و ممن هدينا واجتبينا، اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا و بكيا».

و بازاء هذه الشجرة الربانية النورانية تضع الآيات شجرة جافة مظلمة، انحرفت فى وجهتها عن سلسلة آبائهم الأولين، تغلبت عليهم الشهوات و سخرتهم الأهواء وأنستهم حق الله، وسجلت عليهم سوء العاقبة، ولانجاة الا لمن عاد اليه رشده فادرك الحق، وسلك طريق المرضيين عند الله و أولئك جزاؤهم «جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب انه كان وعده مأتيا لا يسمعون فيها لغوا الاسلاما، ولهم رزقهم فيها بكرة و عشيا»..

الربع الثالث:

من وصف الجنة

* قال تعالى: «تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا» وعد الله في الآيات السابقة الذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات بالجنات، ثم وصفها تبيانا لمكانتها وعلو شأنها بأنها ليست كجنات الدنيا تزول وتفنى، ويعتريها النقص والذبول، وانما هي جنات عدن واقامة دائمة، وبأنها منحة الرحمن لعباده جزاء ايمانهم بها عن طريق الوحي دون رؤية ومعاينة، وبأنها مطهرة من لغو الدنيا وباطلها، وان كل ما فيها غذاء للأرواح، وسلام وأمان ومشاهدة «ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا» وتأكيدا لاستحقاقهم اياها يخلع الله عليها صبغة الميراث الذي يصل الى الانسان بحكم القانون العام الذي لااختيار له فيه، وكثيراً ما تستعمل كلمة «الارث» ولايراد منها الانتقال من مالك سابق الى آخر لاحق، وانما يراد بها ثمرة العمل والجهود وذلك كما يقال: هذا عمل يورث الشرف، ومعناه يحصله ويخلده. ومن هذا قوله في جزاء العاملين بالجنة «تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا».

ونظرا الى أن أهم أهداف البيان القرآني تقوية الجانب الروحي، ولفت النظر الى ما يؤازر التقى في تحمل أعباء التكاليف، كان من سننه المفاجأة في أثناء الموضوعات الخاصة بما يجدد للقلب نشاطه، ويجعله على اتصال دائم بربه يستمد منه العون والقوة، ويطمئن به على حسن معونته، وبلوغ غايته..

ترى ذلك في سورة البقرة اذ يفاجيء وهو في أحكام الطلاق والأسرة بقوله: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين».

وفي سورة طه اذ يفاجئ ــ وهو في حديث يتصل بالناس جميعا ــ بقوله في شأن خاص بتلهف الرسول على تلقي الوحي: «ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدني علما». ومن ذلك قوله في سورتنا على السنة ملائكة الوحي في شأن نزولهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وطمأنتهم اياه

---

* الآيات من ٦٣ الى آخر سورة مريم.

على السير فيه الى النهاية: «وما نتنزل الا بأمر ربك، له ما بين أيدينا و ما خلفنا و ما بين ذلك و ما كان ربك نسيا، رب السموات و الأرض و ما بينهما فاعبده و اصطبر لعبادته هل تعلم له سميا»..

البعث حق

ثم تنتقل الآيات و ترد على حجج المكذبين فى انكار البعث: «و يقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا، أو لايذكر الانسان انا خلقناه من قبل و لم يك شيئا». ثم تفرض الآيات وقوع البعث و انه غير محتاج الى برهان، وتترك الحديث عن امكانه الى الحديث عما يكون فيه لهؤلاء المنكرين من مشاهد العذاب، و ما يلقون من آلام: «فوربك لنحشرنهم و الشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا».

غرور

ثم تذكر غرور الكفار بدنياهم، و اعتزازهم بأموالهم، و زعمهم انهم متفوقون بها على هؤلاء المؤمنين الفقراء الذين لاجاه لهم ولاسلطان، و ترد عليهم بذكر أسلافهم الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا: «واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا، و كم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا». وترشد الى أنّ تمكينهم من ظواهر هذه الحياة ليس الا اغراقا لهم فى الفتنة و الاختبار، و سيرون عاقبة أمرهم و أمر الذين بهم يستهزئون، سيحصى عليهم كل شيء و سيجمعون فى ساحة العدل، يوم لاينفع مال و لابنون: «فسيعلمون من هو شر مكانا و أضعف جندا». «سنكتب ما يقول و نمد له من العذاب مدا و نرثه ما يقول و يأتينا فردا».

زعماء الضلال

ومن عادة الضالين فى كل زمان أن ينتحلوا لهم أئمة و زعماء، و يصورهم للناس أن بيدهم عزهم و فلاحهم. و عن ذلك الطريق يضلون كثيرا من الناس عن سبيل الله. و الآيات تؤكد لهؤلاء و أمثالهم ان هؤلاء الأئمة المنتحلين سيتبرأون

منهم و يكفرون بعبادتهم، يوم تنكشف الحقائق، فيحشر المتقون الى الرحمن وفدا. و يساق المجرمون الى جهنم وردا، ليس لهم من شافع و لانصير.

ثم تعرج الآيات على زعم باطل، صوّره الوهم الفاسد، و الهوى المتبع لكثير من الطوائف، فاتخذوه عقيدة يذيعونها و ينتقصون الله بها، ينافحون عنها، و يفسدون بها فطرة الله التى شهد بها كونه فى تنزيه الله عن الوالد والولد: «و قالوا اتخذ الرحمن ولدا، لقد جئتم شيئا ادًّا. تكاد السموات يتفطرن منه، و تنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا».

صورتان

ثم تختم السورة بوضع صورتين متباينتين:

صورة للذين آمنوا و عملوا الصالحات يتجلى فيها ارتباط قلوبهم، و ارتباط قلوب الناس بهم برباط المودة و المحبة: «ان الذين آمنوا و عملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا».

وصورة للكافرين الجاحدين، تمزق العداوة فيها ما بينهم من صلات، و تملأ قلوبهم و قلوب الناس بالتباغض حتى يقضى عليهم بأيديهم، و يفنى بعضهم بعضا، فتتم عليهم كلمة الله: «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا».

سورة طه

الربع الأول:

• وسورة طه من السور المكية الأولى، وقد نزلت لشد ازر الرسول، و تقوية روحه، وعدم التأثر بما يلقى من الكيد و العناد، و لارشاده الى أن مهمته هى فقط التبليغ و التذكير، و سينتفع بهذا التذكير من طهرت نفسه و أشرق عليها نور الفطرة الطاهرة من الأهواء و زخارف هذه الحياة، و انه ليس من مهمته أن يؤمن الناس، حتى تشق نفسه و يضيق صدره بكفرهم و اعراضهم: «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، الا تذكرة لمن يخشى».

و بعد أن ترفع عنه تبعة كفرهم، تطمئنه على نجاح دعوته، من جهة انها دعوة القوى القادر الذى خلق الأرض و السموات و بسط سلطانه بالرحمة على خلقه، و نفذ تدبيره الى بواطن ما خلق، و اكتنه علمه سر القلوب و احساسها.

ثم تجمل له أوصاف الجلال والجمال في كلمة التبليغ التى أمر بدعوة الناس اليها وتذكيرهم بها: «الله لاإله الا هو له الأسماء الحسنى».

ثم تقص عليه، تطمينا وتسلية: نبأ أخيه موسى وقد أرسل بما أرسل به وقوبل بأشد مما قوبل به، فصبر و كانت له عاقبة الصابرين. وكما تذكر له قصة الصبر على مكايد القوم، ونتيجته فى موسى، تذكر له قصة التسرع و التأثر بالمغريات فى آدم، و ما لحقه بعدم الثبات و العزم، و بذلك عالجت السورة رسول الله من الناحية الايجابية التى يريد الله أن يتحلى بها فى دعوته و هى

• الآيات من ١ الى نهاية الآية ٤٧ من سورة طه.

الصبر، و عالجته من الناحية السلبية التى يريد الله أن يعصم نفسه منها و هى الحزن و عدم الثبات.

ثم تختتم باجمال المبادئ التى تملأ قلبه بالصبر و الوثوق بحسن العاقبة، فتأمره بالصبر على ما يقولون، و بتنزيه الله، وتذكره الاعتماد عليه. و تحذره أن يمد عينه الى متعة الكافرين من زهرة الحياة الدنيا، و تأمره بتزكية أهله و توجيههم لعبادة الله وحده ليكونوا عونا على اداء مهمته كما كان هرون عونا لموسى.

ثم تنزع من نفسه خيال الحاجة الى الرزق و تكله الى الله المنعم الذى تكفل بحاجته و رزقه: «و رزق ربك خير و أبقى». «نحن نرزقك و العاقبة للتقوى» ثم بعد أن تزوده السورة بالأسلحة التى يبدد بها خواطر الضيق و الحرج، تغرس فى نفسه كلمة الواثق من نفسه، و من دعوته، و من عاقبته: «قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى و من اهتدى».

معنى الشقاء هنا

تلك سورة طه، و من هذا العرض الوجيز يتضح ان الشقاء المذكور فى قوله: «لتشقى» ليس هو الشقاء الجسمانى الذى نشأ من طول اقامته فى التهجد على احدى قدميه حتى تورمت، و ان «طه» ليست نداءً له بمعنى يا رجل، أو فعلا يأمره بأن يطأ الأرض بقدميه، ليس شيء من ذلك كما تريد أن تفسره الروايات، و ليس من السهل ــ والرسول يعرف دين الله و يسره ــ أن يقبل شيء من هذا. كما انه لم يعهد فى القرآن الكريم نداؤه صلى الله عليه وسلم باسمه العلم، فكيف ينادى بأعم العناوين كيا رجل؟.. ثم كيف يقبل هذا و ذاك و ليس فى السورة شيء يتصل بقيامه فى عبادته على قدميه أو على احداهما، فالشقاء هو الشقاء النفسى الذى تولت السورة من أولها الى آخرها علاجه.

و «طه» هى كأخواتها، حرفان من حروف التهجى التى افتتح بها كثير من السور التى عرضت للتنزيل و مصدره وفائدته للناس. و قد خوطب النبى بعدد غيرها من تلك الحروف و لم يكن الخطاب دليلا على أن الكلمة نداء له أو أمر بمعناها: «المص كتاب أنزل اليك». «الر كتاب أنزلناه اليك» هذا هو الحق، و للروايات أن تجول و تصول فى كتب التفسير، ولكن الله منزل الكتاب حافظه و حارسه.

قصة موسى

وقد قصت السورة من قصة موسى اختياره لتحمل الرسالة، و أجملتها فى التوحيد و العبادة والبعث «وأنا اخترتك، فاستمع لما يوحى» و ذكرت السلاح الذى منحه الله اياه فى الدعوة ودربه عليه و هو العصا و اليد البيضاء، و ذكرت أمره بالتوجه الى فرعون الذى طغى، و ذكرت أن موسى فى سبيل تحمل الرسالة طلب الى ربه أن يقوى قلبه و أن يسهل له أمره و أن يمنحه لسانا بينا، و أن يجعل له وزيرا صادقا، و تلك عدة الداعى فى دعوته، و ان الله اجاب موسى الى ما طلب، و ذكره بكفالته اياه من عهد المهد الى مراحل الاعداد و التنفيذ: «اذهب أنت و أخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى، اذهبا الى فرعون انه طغى، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى» و هذا ارشاد الى طريق النجاح فى الدعوة، قد سلكه ابراهيم من قبل، و أمر به محمد من بعد: «ادع الى سبيل ربك بالحكمة». و قد أثار علم موسى بطغيان فرعون وشدته الخوف فى نفسه بعدم نجاحه، فتلقى عليه تلك الكلمة التى تقتلع جبال الخوف الراسخة عروقها فى جوف البحار: «لاتخافا اننى معكما أسمع و أرى» فيمتلئ موسى ايمانا بمعية الله و حضانته، و يتلقى من ربه مرة أخرى: «فأتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى».

الربع الثانى:

• وفيه يوجه موسى وهرون الانذار الالهى لفرعون وقومه، ولم تشأ الحكمة الالهية أن يوجه الأخذ بالعذاب الى شخص فرعون اذا كذب وتولى وانما ربطه بالتكذيب والتولى كيفما كان، ومن أى انسان كان، وفيه تنبيه على ما يغضب الله وتلطف بالغ فى توجيه الانذار.

أسئلة وأجوبة

وقد سألهما فرعون عن ربهما صاحب الوحى، و مصدر الانذار، وسألهما عن

• الآيات من ٤٨ الى نهاية الآية ٨٢ من سورة طه.

القرون الأولى و ما تم فى شأنها، اختبارا لعلمها، وكأنه ظن أن الاحاطة بشؤون الماضين من لوازم ادعاء الوحى و الرسالة، و قد أجابه موسى عن السؤال الأول بآثار الربوبية التى تنطق بها الفطر و تشهد بها الكائنات و النعم: «ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى» أعطى كل شيء الوضع و الشكل الذى به تتحقق فائدته، ثم أودع فيه القوة التى توجهه نحو تلك الفائدة. و كان جواب السؤال الثانى أن شؤون القرون الأولى ليس علمها من خصائص النبوة والرسالة، فنحن بشر لانعلم الا ما علمنا الله، وانما هو من خصائصه سبحانه وتعالى فان شاء أعلمنا بها وان شاء أمسكها عنا: «علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولاينسى».

وجوب النظر فى الآيات

ثم يذكر موسى لفرعون بعض الآثار البارزة للقدرة الآلهية، التى يجدر بفرعون أن ينظر اليها وأن يتعرف حقيقتها و منشأها وانعام الله بها عليه و على الناس: «الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى، كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى» تبصرهم بالرب و ترشدهم الى جلاله و عظمته، تدفعهم الى الايمان به، هذا هو الجدير بالنظر فيه.

أشياء لايفيد السؤال عنها

أما السؤال عن القرون الأولى فما فائدته، و قد عميت الأبصار عن النعم الحاضرة، و الآثار البارزة، وفيه ان شأن أولى النهى والعقول ألا يتركوا البحث والنظر فيما ينفع و يفيد الى البحث والسؤال عما استأثر الله بعلمه ودخل فى سر غيبه، كحقيقة الشيطان وعلى أى شكل هو؟.. و كيف يدخل فى جسم الانسان؟.. و كيف يوسوس له؟.. وعن الجنة: ما مادتها؟ ماسعتها؟.. ما أرضها؟ ماسماؤها؟.. وما الى ذلك مما يترك به الانسان الجاد النافع الى مالايضر ولاينفع. ثم لايفوت موسى أن يذكر فرعون بالمبدأ و الموت و البعث، رجاء أن تهزه تلك الأطوار التى تمر بالانسان فتخفض من كبريائه: «منها خلقناكم، و فيها نعيدكم،

و منها نخرجكم تارة أخرى».

لجاج و حجاج

وأمام روعة الأدلة التى يرشد موسى اليها لايملك فرعون الا أن ترتعد نفسه، فلايجد الا جواب المبهوت الذى يهرف بما لايكون. «أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى». ومتى، وأين، وكيف عرف ان الساحريقدرعلى أن يخرج بسحره مثل فرعون وهويزعم انه الرب الأعلى؟ اللهم ان هى الا لجلجة الباطل، وخذلان الافتراء.

بين موسى والسحرة

و ينتقل فرعون الى توعد موسى بسحرة مثله، و يتفق معه على يوم العرض الذى يجتمع فيه موسى بالسحرة، و يبذل فرعون أقصى جهده فى جمع السحرة، و يلتقى موسى بهم، فيقول لهم فى أنفسهم قولا بليغا، قياما بواجب الارشاد والتبليغ: «و يلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى» و يتركهم موسى بعد نصحهم يتنازعون و يتشاورون، و أخيرا جمعوا كيدهم و تواصوا فيما بينهم وقالوا: «ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما و يذهبا بطريقتكم المثلى». ثم يقبلون على موسى ويخيرونه بين أن يتقدم أو يتقدموا، فيشير عليهم بالتقدم: «فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى» فيوجس موسى فى نفسه خيفة و الانسان مهما بلغ من الايمان فانه يرى أن العاقبة بيد علام الغيوب فيطمئنه الله على موقفه: «لاتخف انك أنت الأعلى» و يلقى موسى عصاه فتلقف ماصنعوا، و هنا تخترق الحقيقة قلوب أهل العلم و تضىء لهم الحق فى دعوة موسى فلايملكون سوى أن يخروا سجدا: «آمنا برب هارون وموسى». فتأخذ فرعون دهشة الحق، و يتوعد بجلجلة الباطل: «آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر» فيعتصمون بسلطان الحق ويشرق عليهم نوره، ولا يعبأون بتهديده، شأن العلماء الواثقين بعلمهم «لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا». و ستلقى جزاءك، و لايفوتهم أن يقرروا على مسمعه الحقيقة المقبلة التى

أدركوها بعلمهم.. الفرق بين ماصنعوا وماظهر على يد موسى : «انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لايموت فيها ولايحيا، ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى».

علم نافع وعلم ضار

وهكذا تكون نتيجة العلم الحق، أما العلم الذى لايصل بصاحبه الى كبد الحقيقة، ولايرفعه عن مستوى المجرمين الذين ينكرون الحق، فجدير به أن يكون جهلا وعمى لاعلما ونورا. وهكذا اتضح الحق لسحرة فرعون بعلمهم الحق، و اشتد غيظ فرعون وشدد عليهم وعلى المؤمنين الخناق، فيوحى الله الى موسى؛ انقاذا لقومه، وابقاءً على دينهم باجتياز البحر: «أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لاتخاف دركا ولاتخشى». وهكذا يمد الله أولياءه بما يرد كيد الأعداء. ولغرور الضالين طغيان يدفعهم الى الدمار و التهلكة، و من ذلك يلقى فرعون بنفسه و جنوده خلف موسى ومن معه «فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى» و كذلك تكون القيادة الطاغية والزعامة الضالة تودى بأمتها الى مكان سحيق.

***

قتل الانسان ما أكفره. ينقذ الله بنى اسرائيل على يد موسى، و يرفعهم من الذل الذى كانوا فيه، ولكن يعاودهم سوء التربية والنشأة، ولا تقبل نفوسهم العزة فتمردوا على موسى الذى جاهد فى سبيلهم حتى أنجاهم و أعزهم، و الآيات تذكرهم بتلك النعمة، علهم يخففون من شدتهم و يثوبون الى رشدهم: «كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى و من يحلل عليه غضبى فقد هوى» ثم ترشد الى سنة الله فى العفو و المغفرة مهما تضخمت الذنوب، و عظمت الآثام والجرائم، ترغيبا للعباد فى الخير، وتطهيرا لهم من الشر: «وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى».

سورة النمل

الربع الأخير:

* هذا هو الربع الأخير من سورة النمل، وسورة النمل من السور المكية التى عالجت أصول الدين من التوحيد والرسالة والبعث، وهى احدى سور ثلاث نزلت متتالية، ووضعت فى المصحف متتالية: و هى سورة الشعراء، وسورة النمل، وسورة القصص واشتركت ثلاثتها فى المنهاج، بدأت كل منها فنوهت بشأن الكتاب وماتضمنه من ارشاد وهداية، ثم سلكت مسلك العظة والعبرة عن طريق القصص الذى يوضح سنة الله فى معاملة المكذبين الأولين، و عن طريق لفت الأنظار الى آثار القدرة الباهرة التى لايعجزها شيء فى الأرض ولا فى السماء، وعن طريق التحدث عن الأحوال والمشاهد الهولية التى يصيرون اليها أو تصير اليهم يوم البعث والجزاء.

وقد عرضت سورتنا فيما يختص بجانب البعث الى انكار القوم له وسخريتهم به حتى قالوا: «ءإذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون. لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا اساطير الأولين» وحتى قالوا «متى هذا الوعد ان كنتم صادقين» وفى سبيل الرد عليهم ذكرتهم بعاقبة أسلافهم الذين كذبوا بالبعث: «قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين». وأرشدت الرسول عليه الصلاة والسلام أن ينذرهم بمشارفة بعض أنواع العذاب الذى يستعجلونه، وانهم سيرونه قريبا فى الدنيا بأيديهم وأيدى المؤمنين. وان ارجاءه انتظارا لايمانهم

---

* الآيات من ٨٢ الى آخر سورة النمل.

لمن فضل الله عليهم وهو عالم بما تكنه صدورهم، ومحيط بكل غائبةٍ، وانه سيقضى بينهم بحكمه فلايضيق صدرك يا محمد باعراضهم: «وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم» ثم تشير الآيات الى مايصيبهم من العذاب الأكبر الذى أعد لهم فى الآخرة.

وفى هذا تذكر بعض العلامات الدالة على قرب وقوعه، وان دابة لها من غرابة الشأن مالها ستخرج لهم من الأرض تنطق بالحق الذى أنكروه. وان الناس أعرضوا وضلوا عن آيات ربهم، وقد تكلم الناس كثيرا فى شأن هذه الدابة وأسرفوا حتى قيل: انها ولد ناقة صالح فر الى حجر فتح له فاه حينما عقر القوم أمه فدخله فهو فيه حتى يخرج علامة من علامات الساعة، وماذا علينا لو وقفنا فى حديثنا عن المغيبات عند القدر الذى أخبر به القرآن، ثم تركنا ماوراءه من التفصيل الى اليوم الذى يأتى فيه تأويله وبيانه، وليس الخبر متعلقا بعمل مطلوب من العباد، وانما هو انذار ووعيد وتهديد.

***

فلنقف عند حد العبرة، ولانخض فيما استأثر الله بعلمه «هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات. فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله الا الله، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا».

ثم تسوق الآيات بعد هذه العلامة، بعض الأهوال والمشاهد التى يراها الظالمون فى هذا اليوم: حشر لآخرهم على أولهم، وفزع واضطراب يزلزل كل ثابت. ويقطع ما بين أجزائه من صلات: «ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون، حتى اذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أمّاذا كنتم تعملون». «ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين» ومعناه: «صاغرين». «وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شيء». وهنا أيضا تكلم الناس عن «الصور» فأخذوا يشرحونه ويصفونه، وتكلموا عمن يحمله، وعن عدد النفخات، أهى اثنتان، أم ثلاث، أم أربع، وعن اثر كل نفخة فى الكون وعن الذين يسلمون من الفزع المقصودين بقوله: «الامن شاء الله» تكلموا

فى كل ذلك بما لايتوقف عليه فهم العبرة ولامعرفة الهدف.

وواضح أن فعلا من الله يصدر عن قدرته النافذة يقضى على هذه الحياة، ويخرجها عن نظامها، و يسلم أهلها الى حياة أخرى ذات نعيم دائم أو عذاب اليم.

***

ثم أرشدت الآيات الى أن المكلفين أمام شرع الله ودينه، اما محسن فله خير من حسنته، واما مسىء فعاقبته الخزى والنكال: «من جاء بالحسنة فله خير منها و هم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار» ثم تختم السورة بهذه الوصية البالغة التى ترسم للنبى طريقه الذى يلزمه، غير ضائق صدره بكفرهم، وان هدايتهم لا تنفع أحدا سواهم، وترشده الى تعرف نعم الله والمداومة على شكرها بحمده. وأن يكل القوم فى كفرهم وعنادهم اليه سبحانه وسيظهر الله خزيهم يوم يرون بأعينهم، ما كانوا به يستهزئون: «وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون».

سورة القصَص

الربع الأول:

• سورة القصص ثالثة سور ثلاث نزلت متتالية، كما وضعت فى المصحف متتالية، الثلاث سور تتفق فى منهجها و هدفها كما اتفقت فى جو نزولها، وقد لوحظ أن اللاحقة منها تكمل أو تفصل ما اختزلت السابقة أو أجملت، ولعل ما ذكرته سورة القصص فى قصة موسى وفرعون يتضح فى كثير منه انه تتميم أو بيان لما أجمل فى السورتين قبلها.

تسمية السورة

وعلى كل فهذه السورة هى السورة الوحيدة التى انفردت بحديث موسى عن نفسه و عن سبب هجرته من مصر الى مدين، وهو المذكور بعد تفصيله بقوله تعالى: «فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين»، فهو قصص موسى، و هو فى مصر مع المصريين، و ليس قصصه مع فرعون وقومه. ولعل هذا القصص الخاص هو الوجه فى تسمية السورة «القصص» و قد كانت حياة موسى من يوم أن ولد سلسلة ذات حلقات متصلة من غرائب الأحداث، تتجلى فيها ــ أولا و قبل كل شيء ــ رهبة الطغاة من كل ما يتخيلون ان فيه زعزعة ملكهم، و القضاء على سلطانهم الذى يسخرون به الضعفاء و يسومونهم به سوء العذاب.

• الآيات من أول السورة الى نهاية الآية ٢٨ من سورة القصص.

فرعون مرعوب

فها هو ذا فرعون يعلو فى الأرض، يظلم و يستبد، و يتخذ من رعيته سيوفا يضرب بعضها بعضا، و تلك عادة الطغيان فى كل زمان و مكان، لايدع الرعية تتماسك و تتحاب، خوفا من تكتلها على ازالة سلطانه والقضاء على غطرسته و قد كان من أثر تلك الرهبة أن أوحى الى فرعون من بعض شياطينه أن وليدا يولد فى بنى اسرائيل يكون زوال الملك على يديه، فيطير لب فرعون و يصدر أوامره الظالمة الغاشمة بذبح ذكور المواليد، و يبعث عسسه، و يبث عيونه لتعرف المواليد و تنفيذ الأمر فيهم كى يطمئن على عرشه و سلطانه. و يولد موسى، و تتلقاه قابلة فرعونية، فيتولى الله رعايته بما يرد على فرعون كيده فيه و طغيانه عليه، و لايزال رب موسى يرعى موسى حتى يعده لمايريد من زعزعة الجبروت و اذابة الطغيان، و النهوض بالمستضعفين الى مصاف الزعماء والقواد المصلحين والأنبياء المرسلين: «ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم و يستحيى نساءهم انه كان من المفسدين، و نريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض و نجعلهم أئمة و نجعلهم الوارثين و نمكن لهم فى الأرض، ونري فرعون و هامان و جنودهما منهم ما كانوا يحذرون» وهكذا سنة الله فى الطغاة الظالمين مع الضعفاء العاملين المخلصين، رأيناها في فرعون و موسى ورأيناها فى محمد و أصحابه، و رأيناها فى كثير من الأزمنة و كثير من الأمكنة. وحياتنا الحاضرة أكبر شاهد وأوضح مثال، فهى سنة مطردة يعامل الله بها كل من حاد عن طريقه و طغى و بغى و أخذ بالناس عن طرق الهدى والرشاد.

موسى الوليد

ولد موسى ونمي خبره الى فرعون واضطرب فؤاد أمه عليه، فألهمها الله وسيلة الحفظ و الرعاية، و طمأنها و بشرها: «وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم و لاتخافى ولاتحزنى انا رادوه اليك و جاعلوه من المرسلين» و تحمل أمواج البحر موسى حتى تقف به على باب فرعون و أهله فينشرح لمنظره صدر زوجه و توصى بالمحافظة عليه «قرة عين لى و لك لا تقتلوه، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا».

من عجائب الأقدار

و من عجائب الأقدار أن الله نجى موسى بالبحر من فرعون، و أغرق فى البحر فرعون على يد موسى و مغزى هذا ان الله يعد للظالم قذيفة من صنع يده، و انه يتخذ للظالم مقبرته التى تواريه مما كان يعير به فرعون موسى. فكان موسى قذيفة أطاحت بفرعون و عرشه، و تعاظم فرعون بالأنهار تجرى من تحته فابتلعته البحار، و فى هذا أكبر عبرة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا.

وصدق وعد الله مع أم موسى، فرده اليها و احتضنته و هو ولدها، و رعاه الله حتى نبت فى بيت فرعون كريحانة زكية تنبت فى قرية مليئة بالأشواك و الأقذار، فيعمل جهده على ازالتها و القضاء عليها، و يتعرف بأبناء النبوة و سلالة الأخيار و يربط الايمان بينه و بينهم و يعرفون فيه الملجأ عند الشدائد، و يستنصرونه فى كربهم فينصرهم، حتى كان ما كان: «فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين».

و يتلقى موسى نبأ ائتمار القوم به فيخرج من المدينة خائفا يترقب ملتجئا الى الله أن يهديه سبيل مدين و أن ينقذه من القوم الظالمين.

خبر موسى وابنتى مدين

يصل موسى الى مدين فيجد امرأتين معها انعام تريدان سقيها ولكن يمنعهما الحياء والضعف عن مزاحمة الساقين فيتقدم اليهما و يسقى لهما. فتذهبان الى أبيهما وتخبرانه خبره، فيرسل اليه إحداهما: «ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا، فلما جاءه و قص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين».

يطمئن موسى الى مضيفه الشيخ الذى أكرم منزله وأحسن مثواه، ويرى الشيخ على موسى دلائل النبل و الأمانة فيعرض عليه مصاهرته إياه فى احدى ابنتيه، على أن يرعى غنمه ثمانى سنوات أو عشرا، فيقبل موسى ذلك العرض ويتم الاتفاق ويحصل القران: «ذلك بينى و بينك أيما الأجلين قضيت فلاعدوان علىَّ والله على مانقول وكيل».

الربع الثانى:

• وفيه ان موسى عليه السلام وفى للشيخ الكبير بما التزم فى رعى الغنم، ثم ارتحل بزوجه التى عرفها بالاستحياء، وعرفته بالقوة والأمانة، وكانت سكنه وشريكته فى تلكم الرحلة الميمونة التى تلقى فيها رسالة الهدى والصلاح، رسالة انقاذ المستضعفين من ضغط الطغاة الجبارين.

تكليف موسى بالرسالة

وهنا تذكر الآيات كيف وجه موسى الى مكان المناجاة الذى اختاره الله ليلقى عليه فيه نداء التكليف بالرسالة الى فرعون. يرى موسى نارا فيتوجه اليها ملتمسا دفئا بدنيا أو هاديا بشريا. فيرى النور الذى لايلحقه ظلام، ويسمع الهداية التى لايعتريها ضلال، يسمع نداء ربه: «ياموسى انى أنا الله رب العالمين» ويدربه ربه وهو بين يديه على عدته التى يعتمد عليها فى دعوته. يدربه على العصا يلقيها فتهتز كأنها جان، ويدربه على اليد يدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء: «فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين» يتلقى موسى أمر ربه ويذكر انه قتل منهم نفسا ويخاف أن يقتلوه، ويطلب من ربه ان يشد ازره بأخيه، ويجيبه الله الى طلبه: «سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلايصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون».

عناد فرعون وقومه

يصل موسى الى فرعون ويبلغه رسالة ربه فيسخر فرعون منه ويأخذه الكبر والجبروت ويهزأ بالدعوة: «ماهذا الا سحر مفترى وماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين»، ويلقى على قومه حجاب التضليل: «يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى» ويشتد طغيانه، فيهزأ حتى بالله رب العالمين: «فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى اطلع الى إله موسى».

• الآيات من ٢٩ الى نهاية الآية ٥٠ من سورة القصص.

سنة الله مع اعدائه

استكبر فرعون و جنوده بغير الحق و كانت العاقبة كما صور الله: «فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين» وهكذا كانت سنة الله مع أعداء الله، يجعلهم فى الدنيا أئمة يدعون الى النار ثم لايسلمون فيها من كيد الله ومكره، و يوم القيامة لاينصرون، وهكذا سنته مع أوليائه دعاة الحق، يجعلهم كما وعد أئمة فى الهدى ويجعلهم الوارثين: «ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس و هدى و رحمة لعلهم يتذكرون». تلك قصة موسى مع فرعون و ملئه، أوحاها بجميع أطوارها الى محمد عليه الصلاة و السلام و فى كل طور منها أبلغ العظات و العبر لقوم يذكرون، ثم قصها محمد على أهل مكة. وموقفهم منه عليه الصلاة والسلام هو موقف فرعون من موسى، وخلدها الله فى كتابه لتكون العظة أتم و العبرة أشمل، يطمئن بها فى كل زمان دعاة الحق على دعوتهم، و يأخذ منها الضالون المفسدون مايردهم عن طغيانهم و يبصرهم بسنة الله مع أسلافهم.

أنباء أوحى بها الله

يقص الله على محمد قصة موسى. ثم يوجه اليه الخطاب بما يقطع شك النفوس فى أنه يبلغ عن نفسه، فيذكر له انك تقص عليهم هذا القصص و ما كنت مقيما فى أهل مدين تتلقى عنهم نبأ موسى فى سقى الأنعام و لانبأه فى الزواج، ونبأه فى الأجلين. تقص عليهم هذا القصص وما كنت مع موسى اذ ناداه ربه و حمله الرسالة، ولكنها أحداث وقعت وتطاول عليها الزمن حتى نسى الناس رسالة ربهم و عادوا الى حلف فرعون و استكباره، فأرسلناك اليهم تجدد لهم عهدنا وتذكرهم بآياتنا و تقص عليهم أنباء المكذبين من قبل، لئلا تكون لهم علينا حجة ولئلا يقولوا: «لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين». فبك أبطلنا حجتهم وقطعنا أعذارهم فقابلوك بما قابل به فرعون موسى، و كانت قضية العقل تقضى عليهم بالايمان و التسليم. ولكن توارث الضلال شأن الضالين المضلين..

والحق لايسلم من باطل يحاول تزييفه، واطفاء حرارته فى النفوس، فقابلوا محمدا بما قابل به فرعون موسى و أنكروا عليه حجته و قالوا: «لولا أوتى مثل

ما أوتي موسى». فهل آمنوا بما أتى به موسى؟.. أولم يكفروا به من قبل؟ ألم يقولوا عن موسى وأخيه: «سحران (أو ساحران) تظاهرا و قالوا انا بكل كافرون»؟ فهؤلاء من أولئك.

ومسلك اهل الضلال واحد، وحجتهم الزائفة واحدة تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم. أنكر أسلافهم دعوة موسى و أخيه. وأنكروا هم دعوة محمد وهما دعوة واحدة وهديها واحد فهل لهم ان كانوا طلاب حق وهداية أن يأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما؟.. اما أن يكذبوا دون أن يقدموا حجة أو يأتوا بخير وهداية، فهذا ليس منطق العقل، ولامنطق الحكمة، و انما هو خداع الهوى وسلطان الضلال: «ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لايهدى القوم الظالمين».

الربع الثالث:

استمرار الجحود بعد تتابع الحجج

• نوع الله لأهل مكة أساليب الدعوة، وألوان العظة والاعتبار، نبه عقولهم للنظر في آثار قدرته ولفتهم لتدبر سنته، و كشف لهم عما أعد من عذاب مقيم، و خاتمة سيئة للمكذبين المفسدين، واتبع القول في ذلك كله ببعض، و وافاهم بحججه وأمثاله منجما، ليطلعوا كل يوم على حجة فيتدبروها و يعقلوها، عظة بعد عظة، و عبرة بعد عبرة. و مع هذا لم يؤمنوا بل ظلوا على الاعراض والتكذيب، و لو كانوا طلاب حق لكان لهم من توصيل القول، و تصريف الآيات ما أنار لهم السبيل، و أوضح أمامهم الطريق، فلا تبتئس يا محمد بكفرهم واستمرار كيدهم و حسبك في حقيقة دعوتك ان الذين تلقوا دعوة الله من قبل، و آمنوا بكتبه السابقة، فأشرقت قلوبهم بنور الحق، يدركون احقيتها و انها تلتقي مع دعوة اخوانك السابقين، و يؤمنون بها كما آمنوا بما أنزل من قبلك: «الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين».

• الآيات من ٥١ الى نهاية الآية ٧٥ من سورة القصص.

ثناء وجزاء

وهنا تعرض الآيات لجزاء هؤلاء الذين سلمت فطرهم ولم تفسدها العصبيات الضالة، كما تعرض لأوصافهم التى استحقوا بها ذلك الجزاء العظيم، فتذكر صبرهم فى مواقف الدعوة الى الحق، وتذكر حلمهم واحسانهم لمصدر اساءتهم، وتذكر سخاءهم وانفاقهم فى سبيل الله، وتذكر ترفعهم بأنفسهم عن مجاراة السفهاء واعراضهم عن خطتهم والسير فى طريقهم، والاختلاط بهم: «واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغى الجاهلين». فتلك سنة المؤمنين السابقين، فاستقم أنت ومن آمن معك عليها، ولايحزنك الذى يقولون فانهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون. ان ايمانهم ليس مطلوبا منك، ولا تابعا لرغبتك، وانما هو تابع لما يعلمه الله فى أنفسهم من طهر وصفاء، وبه فقط تتحقق هدايتهم، وبه يتوجهون الى الايمان: «انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين». كان القوم يعتذرون عن عدم ايمانهم بالخوف من أقوامهم يفتكون بهم ويقضون عليهم ان هم آمنوا بمحمد ودعوته: «ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا» ومعناه انهم يصيرون اتباعا بعد أن كانوا متبوعين، ويجردون من سلطانهم بعد أن كانوا ذوى سلطان مرهوب، فترد عليهم الآيات بأن هذه حجة مهلهلة وخيال كاذب، ووهم باطل؛ فالله الذى مكن لهم من حرم يأمن فيه الخائف، ويشبع فيه الجائع، وتجبى اليه الثمرات لايعجزه أن يحفظهم وأن يمكن لهم ضد من يناوئهم، ولو انهم أنصفوا لعرفوا ان استمرارهم على الكفر ورد الحق وانكار سبيل سنة الله سبب لتسليط دعاة الحق عليهم وتمكينهم منهم: «وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الاقليلا، وكنا نحن الوارثين».

ثم ترشدهم الآيات الى أن ماهم فيه من جاه ومال وسلطان مآله الى الزوال، وانه لايدفع عنهم شيئا من قضاء الله: «وما اوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون». ثم تضع الآيات أمامهم صورتين متقابلتين، وتحكمهم فى أى الصورتين خير الى عقولهم وضمائرهم، صورة الذين يلبون دعوة الحق وبه يؤمنون، وصورة الذين يرفضونه وبه يكفرون: «أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من

المحضرين».

ثم تذكرهم بما سيكون يوم القيامة بينهم و بين شركائهم من محاولة تخلص بعضهم من بعض، و تبرؤ متبوعيهم من تابعيهم، وبما سيكون منهم حين يسألون عن موقفهم من الرسل. فتتملكهم الحيرة وتلزمهم الحجة: «ربنا هؤلاء الذين أغوينا، أغويناهم كما غوينا» أى لم يكن لنا سلطان فى غيهم وانما عرضنا عليهم أن يغووا باختيارهم كما غوينا. «تبرأنا اليك ماكانوا ايانا يعبدون». «و يوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين، فعميت عليهم الأنباء يومئذ، فهم لايتساءلون».

النبوة شأن من شؤون الله

وكان القوم يستنكرون أن ينزل الوحى على رجل فقير يتيم من بينهم و قالوا: «لولانزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»، فترد عليهم الآيات بأن الاصطفاء للنبوة كالخلق، شأنان من الشؤون الخاصة بالله. فكما لايخلق الا بمشيئته، لايصطفى الابمشيئته، فهو وحده العليم باستعداد خلقه و صلاحيتهم لما يريد «و ربك يخلق مايشاء ويختار ماكان لهم الخيرة».

ثم تعود الآيات وتذكرهم بنعم الله عليهم، و رحمته بهم فى تنظيم الليل والنهار على وجه يمكنهم من طيب الحياة. وتحاكمهم الى الفطرة فى الاعتراف بأن لاقدرة لأحد سواه فى ذلك التنظيم، اذا هو جعل الليل أو النهار سرمدا: «من اله غير الله يأتيكم بضياء؟.. من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه؟» فان استجابوا للحجة فقد آمنوا و الافقد عرضوا أنفسهم ليوم لا تنفعهم فيه شفاعة الشافعين، و يضل عنهم ماكانوا يفترون.

الربع الرابع:

علاج لنزعات الشر

• يعتز الناس فى دنياهم بما لهم من جاه ومال وسلطان، و كثيرا ماتصرفهم

• الآيات من ٧٦ الى آخر سورة القصص.

نعم الله عليهم الى البطر.. تدفعهم الى الطغيان، وتقطع مابينهم و بين الله من صلات، فينكرون الحق، و يتزعمون عصابات الشر والفساد، و كثيرا ماعالج القرآن هذه النزعة فى الانسان: فنبه بقصصه الى عاقبة الطغيان و البطر، و الى أن الجاه مهما عظم، و المال مهما كثر، والسلطان مهما اتسع، فانه لايرد عن صاحبه شيئا من قضاء الله اذا هواستمر على طغيانه و بطره، وانه لاينبغى لعاقل أن يغتر ببسمة الدنيا، فانها كما يقال: خداعة غرارة، و انه لانجاة من خداعها الا بالايمان والتقوى والعمل الصالح..

قارون و امواله

بهذا مضت سنة الله و لن تجد لسنة الله تبديلا، و في سبيل تقرير هذه السنة يقص الله علينا أمر قارون: كان من قوم موسى، ولكنه لم يحفظ للقرابة حقها، بل بغى وتكبر، و اتخذ نعم الله سبيلا لكيد عباد الله. أنعم الله عليه بمال تعجز الجماعة القوية عن حمل خزائنه، أو حمل مفاتحه، و نسى حق الله فى ذلك المال، و اعتقد طغيانا و كفرا انه من سعيه وكده، وانه سيق اليه باستحقاق ذاتى، وأعانه عليه حسن تدبيره، و نفاذ أمره وسلطانه..

وقد حاول عقلاء قومه ارشاده ونصحه وتذكيره بأن الدنيا لايصح الاطمئنان اليها، و ان أحوالها فى تغير وتقلب، و انه لاعاصم من شرها الا الايمان بالحق، والعمل الصالح، و ان سعادة الانسان انما هى فى أن يتخذ من يومه لغده، و من دنياه لآخرته. قدم له عقلاء قومه مااستطاعوا من نصح و تذكير، ولكن ران على قلبه ما امتلأ به من ضلال وطغيان فأهمل مواعظهم، وخرج بطرا فى زينته، فاغتر به ضعاف العقول، وتمنوا أن ينالوا مكانته. ولكن العقلاء، الذين يقدرون الدنيا قدرها، و يدركون منها مالايدرك غيرهم، أخذوا يؤنبونهم على هذا التمنى، و يؤكدون لهم أن وراء هذه المظاهر الفاتنة الفانية ما هو أسمى منها، و هو معرفة حق الله فى نعمه و ان للبغى من العواقب مايجدر بالعاقل أن يقدره، و أن يدخله فى حسابه، و قد صدقتهم العواقب فلم ينفع قارون ماله و لاجاهه ولاسلطانه، و ماهى الا دورة فلكية حتى كان قارون ومظاهر دنياه فى طى صحائف الماضى: «فخسفنا به و بداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله و ما كان من

المنتصرين. و أصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون و يكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر، لولا أن من الله علينا لخسف بنا، و يكأنه لايفلح الكافرون».

حول زينة قارون

وقد ساق المفسرون كلاما كثيرا فى وصف زينة قارون، وفى كيفية خسف الأرض به، و حسبنا فيها ما تدل عليه كلمة «زينة» بالنسبة لما عهد فى مظاهر أرباب الجاه والمال، و ما تدل عليه كلمة «فخسفنا به و بداره الأرض»، من زوال النعمة و انتزاع الملك والسلطان، و الذلة بعد العزة. و يعجبنى قول الامام الرازى فى هذا المقام: «والذى عندى فى أمثال هذه الحكايات انها قليلة الفائدة، و انها فى أكثر الأمر متعارضة مضطربة، فالأولى طرحها، والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن، و تفويض سائر التفاصيل الى عالم الغيب».

وأرجو أن ننهج فى تفسير كتاب الله هذا المنهج الدقيق الذى يحفظ علينا و على الناس ايماننا بجلال معانى القرآن وقصصه الحق الذى لاريب فيه..

قص الله علينا فى السورة قصة فرعون، و كيف كانت عاقبة علوه و افساده، و قص علينا قصة قارون، و كيف كانت عاقبة بغيه، و تكبره، و كلها سنن مطردة فى معاملة الله للمتكبرين المفسدين. ثم ختمت السورة بالارشاد الى أساس الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولافسادا والعاقبة للمتقين»..

تربية

شأنان لابد من تربية النفوس عليها حتى تحظى بالسعادة عند الله: تطهير النفس من ارادة الظلم والافساد فى الأرض، واتقاء ما يغضب الله من اهمال أحكامه و شرائعه، و اهمال سننه و نظمه، وقد نبه القرآن كثيرا على أوصاف المتقين، الذين ضمن الله لهم عز الدنيا وسعادة الآخرة، فعلينا أن نتدبرها لنعرف كيف تتكون التقوى فى النفوس، و كيف تبدو آثارها فى نفع البلاد والعباد.

منزلة الرسول عليه السلام

انتقلت الآيات بعد ذلك الى شأن خاص بالرسول، فطمأنته على المنزلة الخاصة والدرجة العالية التى أعدها الله له، بما فرض عليه من تبليغ القرآن و بيان أحكامه، و التى لاينالها أحد سواه: «ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد». وبقدر ما يتعلق أتباع محمد بالقرآن يكون لهم من ذلك المعاد و تلك المنزلة. ثم يلفت نظره الى أن انزال هذا الكتاب اليه و تخصيصه به لم يكن ليتوقعه فى نفسه، و انما هو من رحمة ربه به، و من رحمته بعباده، فتمسك به يا محمد، ولا تكوننَّ ظهيراً للكافرين «ولايصدُّنَّك عن آيات الله بعد إذ أُنزلت إليك وآدعُ الى ربك ولا تكوننَّ من المشركين، ولا تدعُ مع الله إلها آخر لا إلَهَ إلّا هو كلُّ شيءٍ هالكٌ الا وجهه له الحكم و إليه ترجعون»

سورة العنكبوت

الربع الأول:

الناس امام الدعوات الجديدة

• من شأن كل دعوة جديدة دينية كانت ام سياسية، أن تجد لها فى الجماعة البشرية من يتقبلها و يؤمن بها، و يضحى بنفسه و ماله فى سبيل نشرها و تركيزها و اقناع الناس بها، وان تجد بازاء من يؤمن بها من ينكرها و يكفر بها، و يسعى جهده فى ظاهره و باطنه فى مكافحتها و القضاء عليها. فريقان مؤمن قوى الايمان واضحه، و كافر شديد الكفر واضحه. فاذا ما امتدت الدعوة، وظهر سلطانها، اتصل بأهلها طمعا أو رهبا دون أن يؤمن بها فريق ثالث تزيا بزيهم فيصلى مثلا كما يصلون، و يصوم كما يصومون مادام فى صفوفهم، و ما دام فى امن من التكاليف الشاقة و التضحيات النفسية و المالية، و اذا ترك هذا الصنف، فى تردده بين ايمانه الظاهر و كفره الباطن، كان معول هدم فى جماعة المؤمنين، و كان أشد فتكا بهم و بدعوتهم من أعدائهم البارزين.

لهذا اقتضت حكمة الحكيم أن يكون له فى كل دعوة اصلاحية من أنواع التكاليف ما يمتحن به المرء فيعرف منه الصدق ان كان صادقا، و يعرف منه الكذب ان كان كاذبا، و بذلك تطهر صفوف المؤمنين من عناصر التخذيل، و يعرف خبيثهم من طيبهم، وقد عنى القرآن كثيرا بلفت الأنظار الى فائدة الابتلاء

• الآيات من ١ الى نهاية الآية ٢٥ من سورة العنكبوت.

بالتكاليف الشاقة من صنوف الجهاد، و أنواع البذل فى سبيل الله: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم، مستهم البأساء و الضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول و الذين آمنوا معه متى نصرالله».

الابتلاء سنة فى الأولين و الآخرين

و فى هذا الشأن نزلت سورة العنكبوت، و ارشدت الى أن الابتلاء سنة فى الأولين، و ماضية فى الآخرين: «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا و هم لايفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا و ليعلمن الكاذبين».

عناية الله بالمؤمنين

وفى شد عزائم الصادقين المخلصين الذين يتقبلون فى جد البلايا والمحن ترشدهم الآيات الى أن الباطل، مهما قويت أنصاره، وعلا زبده، مآله الاضمحلال والزوال، و لابد أن يقع دعاته تحت سلطان الله القوى القاهر، الذى لامفر منه: «أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون».

وتشد الآيات ازرهم مرة اخرى فترشدهم الى أن الله لم يمتحنهم بالشدائد حبا فى تعذيبهم أو لتحصيل كمال ينقصه و انما يمتحنهم بالشدائد تقوية لايمانهم، وتثبيتا لسلطانهم، و تعظيما لأجرهم عند الله: «ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين، و الذين آمنوا و عملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم و لنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون»..

حقان محفوظان

وكثيرا مايصدم الانسان، فى عاطفة ايمانه، عاطفة أبوة تدعوه الى الكفر، أو تدعوه الى ترك الجهاد فى سبيل الدعوة التى يؤمن بها، ولربما أضعفت تلك الصدمة صبر المؤمن، و سولت له ترك ايمانه أو الاخلال بواجبه، و فى حل هذا الاشكال ترسم السورة طريق الخلاص فتحفظ للأبوة حقها الذى لايطغى على حق الله، و هو الاحسان اليها، وتحفظ لله حقه، فلا تطاع الأبوة فى الاشراك به: «ووصينا

الانسان بوالديه حسنا و ان جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما».

من أوصاف المنافقين

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك الى بعض شؤون المنافقين، فتذكر انهم يضعفون عن تحمل ايذاء الكفار لهم، و يجعلونه كعذاب الله مخشيا مرهوبا، ولايقدرون على دفعه، و بذلك يتزلزل ايمانهم، و تضعف مقاومتهم. و تذكر أيضا أنهم لايظهرون فى صفوف المؤمنين الا حين تمام النصر والغلب: «ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم».

وقد كان من صور تغرير الكافرين بضعاف الايمان أنهم يتكفلون لهم بخطاياهم، و تحمل تبعات كفرهم ان كان هناك يوم للجزاء والحساب، وقد عهدنا أن عناصر الفساد تغرى ضعفاء القلوب بالآمال الكاذبة اذا استقاموا معهم و عاونوهم فيما يريدون من شر وفساد، والسورة ترشد الى هذا النوع من الخداع، و تظهر الحقيقة جلية ناصعة: «وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا و لنحمل خطاياكم، و ما هم بحاملين من خطاياهم من شيء، انهم لكاذبون».

ابتلاء السابقين

ثم تعود الآيات فترشد بالأسلوب التاريخى الى أن الابتلاء ليس شأنا خاصا بمحمد وأمته، و انما هو شأن عام، تقلب فيه نوح و قومه، و تقلب فيه ابراهيم و شيعته حتى قيل: «اقتلوه أو حرقوه» فأنجاه الله كما أنجى المؤمنين قبله..

ولايفوت الآيات أن تقرع أسماع المكيين أثناء هذا القصص بالتبكيت والسخرية على ما اتخذوا من دون الله أوثانا لايملكون لهم رزقا، و تأمرهم بالنظر فيما خلق الله.. و بالسير فى الأرض ليعلموا آثار قدرته.. وليؤمنوا بأنه رب النشأتين: الدنيا والآخرة، وانه على كل شيء قدير: «وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ومالكم من دون الله من ولى ولانصير».

الربع الثانى:

عاقبة صبر ابراهيم

* وفيه بيان عاقبة الصبر الذى أعتصم به ابراهيم فى الدعوة الى الله وفيما وجهه اليه قومه من كيد وايذاء، وقد كان منها انه اكتسب قوة من عشيرته كان لها أثرها الواضح المستمر فى الدعوة الى الله، و هو ابن أخيه لوط، و منها ان الله أعزه بالهجرة التى مكنت له فى القيام بدعوته، و منها ان الله أكرمه بذرية صالحة تنسج على منواله، وتسير فى طريقه وتفتح للناس طريق الهدى والرشاد، و بذلك خلد ذكره، و امتلأت جميع القلوب بمكانته: «فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى، انه هو العزيز الحكيم، ووهبنا له اسحاق و يعقوب، وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب و آتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين».

لوط وقومه

وتسير الآيات فى تصوير ابتلاء الله لعباده المؤمنين، والتنويه بشأن جهادهم وصبرهم على الكيد والأذى، و ما كان لهم من حسن العاقبة فتذكر لوطاً وما قاساه فى دعوة قومه الى التطهير من فاحشتهم التى شذوا بها عن الفطرة، و أفسدوا بها خلق الله حتى ضاق صدره ولم يجد ملجأ سوى الاستنصار بربه: «رب انصرنى على القوم المفسدين» فسمع الله نداءه، و بعث اليه بجند الانقاذ ومدد النصر: «ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم، و ضاق بهم ذرعا، وقالوا لاتخف ولاتحزن، انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين، انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون».

عناصر الشر التاريخية

وتشير الآيات فى التذكير بأهل البغى والعناد، فتذكر مدين وتكذيبهم لشعيب، و تذكر عادا و ثمود وما كان منهم لهود وصالح، ثم تذكر قارون وفرعون و

* الآيات من ٢٦ الى نهاية الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

هامان واستكبارهم فى الأرض وثلاثتهم من عناصر الشر التاريخية، وقد شرحت سورة القصص السابقة علوهم فى الأرض، وبغيهم على عباد الله.

ثم تضع الآيات أصابع المكيين، ومن يتخذ سبيلهم فى محاربة الحق، على حروف المعاقبة التى حلت بهم، وطوقتهم بألوان من عذاب الله: «فكلا أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون».

عظة الحاضر..

واذا كانت سنة الله فى أخذ الظالمين واحدة، فنحن فى عصرنا هذا نرى ونسمع عن الرياح الحاصبة تقتلع الأشجار وتنزل بشاهقات العمائر، وعن الصيحات تخلع القلوب، وتستلب الأرواح من الأشباح، وعن البراكين تنفجر وتلتهم نارها القرى والمدن، وعن الأرض تتفكك أوصالها وتغور طبقاتها، وتصبح مقبرة لمن عليها، وعن الفيضانات، وقد فارتنورها، وأتت على كل شيء من الحضارات.. كل ذلك نراه، ويقف الجبارون أمامه حيارى، ثم لايلبثون أن يعودوا فيعملوا جهدهم فى اختراع المدمرات من نفاثات وذريات بغيا من الانسان على أخيه الانسان. وكان جديراً بهم اذا كانوا أرباب دين وإيمان أن يبذلوا جهدهم فى وقاية خلق الله من عذاب الله القاهر بالسلم العام، واقامة العدل، والكف عن المظالم..

أوهن البيوت

وبعد أن تسبح السورة هذا السبح الطويل فى سنة الابتلاء، ومصير المكذبين الذين يفتنون الناس عن الحق، تتجه الى المكيين، فتصور لهم ضعف الملجأ الذى اعتصموا به، وهو الأوثان، عن أن يدفع عنهم كيد الله وانتقامه وتجعل مثلهم، فى اتخاذهم اياها، كمثل العنكبوت فى اتخاذها بيتا من تلكم الخيوط الواهية الضعيفة التى تنسجها، فلا تدفع عنها حرا ولابردا، ولاتحفظها من يد تمتد اليها، ولاريح تهب عليها، فكذلك ولاية الأوثان لهؤلاء، ولاية لا تسوق اليهم خيرا،

ولا تدفع عنهم شرا: «مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون».

مثل يأخذ بقلوب المؤمنين، ويريهم شاسع الفرق بين من يتخذ الجاهل ــ الذي لايقدر ــ وليا من دون الله، يعتمد عليه ويستنصره وبين من يتخذ المحيط بكل شيء ــ القادر على كل شيء ــ وليا يعبده، ولايعبد سواه: «ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم» «خلق الله السموات والأرض بالحق، ان فى ذلك لآية للمؤمنين».

ثم تتجه الآيات الى أهل الايمان الحق فى شخص رسولهم، وترسم لهم طريق العصمة من التردى فى هاوية هؤلاء الضالين المكذبين، فتأمر بتلاوة الكتاب، والانتفاع بهديه وارشاده، وقصصه وأخلاقه، وأحكامه ودلائله..

ثم توصى على وجه خاص بالصلاة واقامتها، فهى المعراج القوى الذى يصعد به المؤمن الى ربه، وهى العدة التى يجاهد بها المؤمن نفسه وهواه، وهى النور الذى يرى به عظمة مولاه، وبه يراقبه فى سره ونجواه: «اتل ما أوحى اليك من الكتاب، وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر والله يعلم ما تصنعون».

سورة غافر

الربع الثالث:

* هذا هو الربع الثالث من سورة غافر، وقد بدأها الله بجملة من صفاته، ذات الجلال و الجمال، و كان فى مقدمة تلك الصفات صفة المغفرة التى يفتح بها للضالين المكذبين باب الرجوع اليه: «غافر الذنب وقابل التوب». و لهذا البدء سميت بسورة غافر. وتسمى أيضا بسورة المؤمن، لأنها انفردت ــ وهى تذكر بموقف المبطلين من قوم موسى عليه السلام ــ بذكر نصيحة مؤمن من آل فرعون، قيضه الله للحق الذى يدعو اليه موسى من بيئة الكفر والعناد، وأخذ يلقى عليهم مواعظه التى من شأنها أن تستل من قلوبهم محاربة الحق، والاستكبار عن قبوله. حذرهم تنفيذ ما عزموا عليه من قتل موسى، و أنذرهم عاقبة استمرارهم فى الطغيان، و ضرب لهم فى ذلك الأمثال بمصائر المكذبين قبلهم. كما خوفهم عذاب الآخرة الذى سينالهم يوم الجزاء الذى لاعاصم فيه من أمر الله، ودعاهم الى اتباع الحق، وتلبية الهدى والرشاد، و أنكر عليهم تعلقهم بالدنيا الزائلة، و بين لهم أن العاقل يجب أن يربط نفسه بالباقى الدائم، لا بالمتاع الفانى: «ياقوم انما هذه الحياة الدنيا متاع، و ان الآخرة هى دار القرار».

وكان آخر نداء وجهه اليهم انكاره عليهم ــ بعد أن تبين له الحق ودعاهم الى النجاة ــ أن يدعوه الى ترك ذلك الحق، وأن يدخل فى باطلهم: «و يا قوم مالى أدعوكم الى النجاة، و تدعوننى الى النار». و يشرح لهم ذلك بقوله: «تدعوننى

---

* الآيات من ٤٦ الى نهاية الآية ٦٥ من سورة غافر.

لأكفر بالله و أشرك به ما ليس لى به علم، و أنا أدعوكم الى العزيز الغفار».

وأخيرا، و بعد أن يبذل فى نصحهم أقصى الجهد البشرى، أعلنهم بكلمة الواثق من عقيدته، الحريص على خير أمته، المضحى بنفسه فى سبيل الحق الذى يدعو اليه:

«فستذكرون ما أقول لكم و أفوض أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد».

وكانت عاقبته أن حفظه الله ورعاه، و عاقبتهم أن نزل بهم الكيد والبلاء: «فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب».

العبرة من القصة

و عبرتنا من هذه القصة أمران:

أحدهما: إن الحق، مهما تكتل على اخفائه ورفضه أعوان الباطل، لابد أن يقيض الله له من بيئة المبطلين أنفسهم من يؤمن به، و يغار عليه، ويضحى بنفسه وراحته فى سبيله حتى يظهره الله..

وهكذا كان حق محمد، و باطل المشركين، هكذا شأن كل دعوة الى الحق أمام المبطلين فى كل عصر، و فى كل زمان.

ثانيهما: ان على من تبين له الحق و آمن به أن يبذل غاية وسعه فى دعوة قومه اليه، حتى اذا أيس منهم وأيقن أن لافائدة من دعوته إياهم اعتزلهم وما يعبدون من باطل، وعندئذ يتولى الله أمرهم، و يوقع بهم شديد العقاب: «فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب». «فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء، و أخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون».

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك، وتصور للمبطلين موقف أتباعهم من متبوعيهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين، كما تصور التجاء الجميع الى جنود العذاب: «خزنة جهنم» يلتمسون منهم دعوة الله الى تخفيفه، فلايكون الجواب سوى تسجيل الخزى والعذاب عليهم، و تبكيتهم على انكار الحق بعد أن قامت عليهم حججه ودلائله: «أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟.. قالوا: بلى قالوا: فادعوا، وما دعاء الكافرين الا فى ضلال».

ثم تضمن الآيات لدعاة الحق النصر و التأييد وتأمرهم بالتزام الصبر والتمسك

بحبل الله فى سبيل الدعوة اليه ، و تؤكد لهم أن معارضة المبطلين لم تكن ناشئة عن برهان، و انما هى أثر لكبر ملأ قلوبهم، وستضمحل قوتهم ببركة الاعتصام بالله: «فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار. ان الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ان فى صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله، انه هو السميع البصير».

ثم تلفت الآيات الى آثار قدرة الله فى الكون، فتذكر نعمته على العباد بالليل الذى فيه يسكنون، و بالنهار الذى فيه ينتشرون، وبالأرض التى عليها يقرون، ومنها يرزقون، و بالسماء التى بمائها ينتفعون، و بنجومها يهتدون، ثم تبرز لهم نتيجة كل ذلك التى هى دعوة الحق: «ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين: هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين، الحمد لله رب العالمين».

الربع الرابع

• هذا هو الربع الرابع والأخير من سورة غافر، وقد ختم الربع السابق بجملة من صفات الجلال و العظمة، تدعو الى افراد الله سبحانه بالعبادة والتقديس، و الاتجاه اليه وحده بالحمد و الثناء على ربوبيته العامة للعالم، و تحول بين الانسان المدرك لآثار هذه الربوبية، و بين الخضوع لغيره سبحانه، و تحمله على تقرير الحق فى الربوبية والعبادة فى نفسه، و فى عمله، و فى دعوته: «قل انى نهيت ان أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى، و أمرت أن أسلم لرب العالمين».

الله الخالق

ثم تعود الآيات الى تركيز العقيدة عن طريق لفت الأنظار الى جملة من الأدلة النفسية التى يدركها الانسان فى كيفية خلقه و فى الأطوار التى مرت به: «هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا و منكم من يتوفى من قبل، و لتبلغوا أجلا مسمى، و

• الآيات من ٦٦ الى آخر سورة غافر.

لعلكم تعقلون».

شأنه كن فيكون

هذه الأطوار ترشد بأوضح بيان الى أن الذى تولاها، ودرج بالانسان فيها: «هو الذى يحيى و يميت» و الى أنه صاحب الأمر النافذ الذى لايعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء «فاذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون» و هذا شأنه لايتغير: نراه فى كتلة العالم، ثم نراه فى النبات، و فى الحيوان، و فى الانسان، و هو شأنه فى الحال، و شأنه فى المآل، يوجد «بكن» و يميت «بكن». «وكن فيكون» شأنه الذاتى لايتخلف ولايزول. و اذا كان شأنه «كن فيكون» فالى أى جانب يذهب هؤلاء الذين ينكرون حقه الذى يغار عليه، والذى أرسل به رسله، و أنزل به كتبه؟.. إن حجج الحق قد طوقتهم، وأخذت عليهم جميع المسالك، ولم تجعل لهم سوى مسلك واحد سيعلمونه حينما توضع الأغلال و السلاسل فى أعناقهم و يسحبون فى الحميم، ثم فى النار يسجرون، ثم يقال لهم: ان ذلكم الذى أنتم فيه «بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق، و بما كنتم تمرحون، أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، فبئس مثوى المتكبرين».

و بعد أن تصور الآيات مصير المجادلين بالباطل، هذا التصوير الذى ينزع من الصدور قلوبها، تعود فتأمر أهل الحق بالصبر والثبات: «فاصبر ان وعد الله حق» و تؤكد لهم أن مرد المعاندين الى الله سواء عجل لهم العذاب أم أخره: «فاما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فالينا يرجعون».

ثم تلفت الأنظار الى أن شأن دعاة الحق مع المعارضين هو شأن المرسلين السابقين: أوذوا فى سبيل الله وصبروا: «وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله فاذا جاء امر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون».

ثم تأخذ فى التذكير بنعم الله فيما خلق لهم من أنعام ينتفعون بألبانها ونسلها. و فيما هيأ لهم من سفن تحملهم و تحمل أمتعتهم الى آفاق غير آفاقهم، ثم توقظ فيهم ضمير الحق: «و يريكم آياته فأى آيات الله تنكرون».

ثم تذكر الآيات بسنة الله مع أسلافهم الذين انكروا الحق، و كانوا أكثر منهم و أشد قوة وآثارا فى الأرض، فما أغنى عنهم ما كانوا عليه من قوة، وما كانوا

فيه من كثرة، بل حاق بهم ما كانوا به يستهزئون: «فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون».

واذا كانت عوامل الفساد، وعناصر الشر، و مظاهر الطغيان، وسنة الله التى يأخذ بها الطغاة واحدة فى كل العصور، فليحذر هؤلاء الطغاة، الذين يسخرون ما أنعم الله به عليهم من علم، و قوة، و مخترعات فى استعباد خلق الله و استعمار أوطانهم، فليحذروا غضبة الله للحق، و غيرته على عباده، فتلك سنته، ولن تجد لسنته تبديلا.

سورة فصّلت

الربع الأول:

* سورة فصلت، وتعرف بسورة السجدة، هى السورة الثانية من سور سبع بدئت بحرفى «حم» وعرفت لذلك فى القرآن الكريم باسم الحواميم، وقد نزلت مرتبة متتالية، ووضعت فى المصحف كما نزلت، و هى كلها تؤكد ان القرآن من الله الجامع لصفات الجلال و الجمال، من العزة والحكمة والعلم و الرحمة: «تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم». «تنزيل من الرحمن الرحيم». «تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم».

القرآن وحى الله الى رسوله

ومعنى هذا ان القرآن ليس ــ كما يزعم المبطلون ــ من سحر الكهان، و لامن اساطير الأولين، ولامن مفتريات محمد، و لا من تعليم بشر، و انما هو وحى من الله أنزله على رسوله، يقرر به أصول دينه من الايمان بوحدانيته، و الايمان بالوحى والرسالة، و الايمان بالبعث والجزاء، و قد لفتت جميعها فى سبيل ذلك الى آثار الله و نعمه فى الأنفس و الآفاق الدالة على قدرته النافذة، وعلمه المحيط، وحكمته البالغة، كما انذرت ورغبت. أنذرت بالعذاب الذى حل بالأمم التى كذبت رسلها، و بالعذاب الذى أعد لهم يوم البعث و الجزاء، و رغبت بالحياة الطيبة فى الدنيا، و بالنعيم الدائم فى الآخرة، و كثيرا ما تضمنت تحليل نفسية

---

* الآيات من ١ الى نهاية الآية ٢٤ من سورة فصلت.

المكذبين، وصورت اعراضهم، وجنايتهم على عدم استعدادهم لسماع الحق و الحكمة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وتهدئة لنفسه، ونفوس أصحابه المجاهدين.

عناد

وها هى ذى سورة فصلت، قد وضحت كثيرا من مواقفهم أمام الحق الذى يدعوهم اليه، وكان من أبرز ما فصلته تصوير اعراضهم عنه، وشدة نفورهم منه بقولهم: «قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه و فى آذاننا وقر، و من بيننا و بينك حجاب فاعمل اننا عاملون». يصفون أنفسهم بأن قلوبهم فى أغطية محكمة فلاينفذ اليها شعاع من الدعوة، و بأن آذانهم فيها وقر و ثقل، فهى لاتحمل الى قلوبهم صوتا من الحق، و بأن بينهم وبين الداعى ــ محمد عليه الصلاة والسلام ــ حجابا مانعا من التفاهم و تبادل الرأى. والمعنى فى ذلك كله أنهم طمسوا استعدادهم، وطمسوا على أنفسهم سبل الحق. و تصوير اعراضهم بهذا النحو يطابق تماما تصويره بقوله تعالى: «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم و على أبصارهم غشاوة». وان اختلف القصد والهدف، فالقصد فى آية الختم بأنهم بأهوائهم أعرضوا عن الحق، وزين لهم الشيطان ذلك الاعراض حتى ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون. والقصد فى آية الأكنة، أنهم يحقرون شأن الدعوة، ويعلنون أنها ليست مما يستحق أن تفتح له القلوب أو تسمع له الآذان، أوترفع بينهم و بين صاحبها الحوائل.

أوامر الله لنبيه

أمام هذا التصوير، الذى يصورون به اعراضهم عن الدعوة، يأمر الله نبيه أن يقرر لهم أولا مهمته، و أنه ليس الا بشرا يوحى اليه، فيبشرهم إن آمنوا، و ينذرهم إن أعرضوا، و ليس عليه شىء من تبعة اعراضهم وتكذيبهم: «قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه و و يل للمشركين».

وتأمره ثانيا: أن يقرر لهم أن اعراضهم عن دعوة الحق ليس الا كفرا بما شهدت بوحدانيته و قدرته ظواهر التكوين وأطواره فى الأرض و ما أودع فيها من

جبال وأقوات، و فى السماء ومانظمت عليه من كواكب و مصابيح: «قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين». فان هم استعملوا عقولهم، و آمنوا بما تنطق به هذه الظواهر فقد أفلحوا وسعدوا، وان هم أعرضوا: «فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود».

وتأخذ الآيات فى بيان ما كان لهؤلاء من قوة واستكبار فى الأرض، و مع ذلك لم تغن عنهم قوتهم و لااستكبارهم، بل أخذهم الله بالعذاب الهون: «ونجينا الذين آمنوا و كانوا يتقون».

وتأمره ثالثاً: ــ بعد هذه المثلات الخالية ــ أن ينذرهم بما يصيرون اليه يوم القيامة، يوم يشهد عليهم سمعهم و أبصارهم و جلودهم بما كانوا يعملون. يوم ينكرون على جوارحهم ــ التى استخدموها فى الشر و الفساد ــ أن تشهد عليهم بما أفسدوا، فتقر لهم الجوارح ان الله، الذى أنطق كل شىء بوحدانيته، قد أنطقها بجرائمهم، و انهم كانوا بحالة من يظن أن الله تخفى عليه شؤونه: «ولكن ظننتم ان الله لايعلم كثيرا مما تعملون. وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين».

وهكذا تكون نهايتهم، أجزعوا و استغاثوا، أم صبروا فى ظل من رجاء العفو والمغفرة.. «فان يصبروا فالنار مثوى لهم، و ان يستعتبوا فما هم من المعتبين».

الربع الثانى:

اخوان السوء

• صور الربع السابق اعراض المشركين عن الدعوة. وبين مصيرهم يوم القيامة و ما يلحقهم من الخزى و الخسران. و فى هذا الربع ترشدهم الآيات الى أن هذا المصير السيّئ لم يكن أثرا لطبعهم على الضلال، ولا إكراها لهم من الله عليه، وانما هو أثر لتأثرهم باخوان السوء، الذين زينوا لهم ما بين أيديهم و ما

• الآيات من ٢٥ الى نهاية الآية ٤٦ من سورة فصلت.

خلفهم من الأهواء والشهوات، و عبرتنا فى ذلك أن الشر كثيرا ما يصيب الانسان من وقوعه تحت تأثير البيئة الفاسدة المحيطة به. فعلى العقلاء ان أرادوا حياة طيبة أن يتخيروا الأصدقاء، وأن يطهروا مجتمعهم من عناصر الشر، و بذور الفتن، حتى لايكون لها سلطان على قلوبهم.

وكما صور الربع الأول اعراض المشركين عن الدعوة فى أنفسهم بقولهم: «قلوبنا فى أكنة»، صور هذا الربع طريقتهم فى محاولة صرف الناس عنها: «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون». يحذرونهم من الاستماع اليه، و الانصات له، مخافة أن تصل الى قلوبهم حكمه السامية، و يرسمون لهم أسلوب ذلك بما يخفى عليهم فضله: «والغوا فيه»: أطلقوا عليه ألسنتكم، أشيعوا السخط عليه، انشروا عنه الأباطيل.. و هذا شأن عرفه المضللون طريقا لاخفاء الحق فى كل زمان يغمرونه بالأراجيف و المفتريات، و يتتبعون أهله بالمقاطعة والتهريج أينما حلوا، و أينما ارتحلوا. و الله يتوعد المرجفين الذين يعملون على اخفاء الحق بالعذاب الشديد، و سيكشف للتابعين افساد المتبوعين لهم: «ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن و الانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين».

المؤمنون فى رعاية ربهم

ثم تشد الآيات أزر المؤمنين وتؤكد لهم أنهم ــ بايمانهم واخلاصهم فى الدعوة، واستقامتهم على حدودها ــ فى حماية الله و رعايته، يقوى قلوبهم و يطرد عنهم بواعث الخوف و الحزن، ويمنحهم كل ما يطمئنهم، و يبشرهم بالفوز و الفلاح: «ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا و لاتحزنوا و ابشروا بالجنة التى كنتم توعدون» ثم ترشدهم الى أنهم بدعوتهم الى الله فى منزلة لايوجد فى حكم الله وقضائه أسمى منها: «ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا و قال انني من المسلمين». كما ترشدهم الى ما يحفظ عليهم تلك المنزلة من تحلية النفس بالصبر والاحتمال، ومقابلة السيئة بالحسنة، و تطهيرها من نزغات الشيطان التى ينزل بها المؤمن عن مقتضى الايمان و تمنعه منزلة السمو بالدعوة الى الله: «واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم».

بعض دلائل الوحدانية

ثم تعود الآيات فتلفت الأنظار الى بعض دلائل الوحدانية فى علوى العالم وسفليه، و ان كل ما فى الكون خاضع لقدرته و سلطانه، فلايصح السجود لغيره مهما عظم: «لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذى خلقهن» وترشد الى أن العدول عن مقتضى هذه الأدلة انحراف عن الحق، والحاد فى آيات الله، و تتوعد هؤلاء الملحدين باطلاع الله على سرائرهم، والعوامل التى دفعتهم الى هذا الالحاد: «ان الذين يلحدون فى آياتنا لايخفون علينا، أفمن يلقى فى النار خير، أم من يأتى آمنا يوم القيامة، اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير».

تسلية

ثم تنتقل الآيات الى تهوين الأمر على الرسول صلى الله عليه و آله وسلم، وفى سبيل ذلك ترشده الى أن موقف قومه منه هو موقف الأمم الماضية من اخوانه السابقين، و ما عليه الا أن يصبر كما صبروا: «ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة و ذو عقاب اليم» فلا تسمع لمقترحاتهم، ولاتهتم بكيدهم، فهم قوم لايثبتون على حال، و لايرضيهم الا الشهوات و الأهواء، ولقد أنزلنا عليهم قرآنا عربيا بلسانهم، فيه التفصيل والبيان، والحجة والبرهان، فأعرضوا عنه و قالوا فى آذاننا وقر: «قل هوللذين آمنوا هدى و شفاء، والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر، وهو عليهم عمى، أولئك ينادون من مكان بعيد».

ثم تختم الآيات بتقرير مبدأ الحكمة والعدالة في المؤاخذة بالاعمال صالحها وسيئها، وان نفساً لا تتحمل وزر اخرى: «من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها، و ماربك بظلام للعبيد»

الربع الثالث:

• ومن أساليب القرآن فى الدعوة التهديد والانذار بأهوال الساعة وشدة العذاب فى الآخرة، و قد جاء ذلك فى عبارات مختلفة، وعلى ألوان وأنحاء متعددة،

• الآيات من ٤٧ الى آخر السورة.

تصف الآيات مقدمات الساعة تارة، وتصف الحشر تارة أخرى، وتتحدث عن العذاب ثالثة، وعن أحوال المكذبين مع شركائهم أو مع الحق رابعة، وهكذا الى آخر ما نراه فى القرآن الكريم، ومما جاء فى ذلك من سورتنا «ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون». «و يوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون». «فان يصبروا فالنار مثوى لهم و ان يستعتبوا فما هم من المعتبين». «أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ؟».

وكان القوم يقابلون الحديث عن الساعة، وعن عذاب الآخرة، تارة بالانكار و التعجب من الاخبار به و يقولون: «ما هى الا حياتنا الدنيا نموت و نحيا و ما يهلكنا الا الدهر»، «من يحيى العظام و هى رميم». و تارة بما يفيد انهم شاكون متحيرون: «ماندرى ماالساعة، ان نظن الا ظنا و ما نحن بمستيقنين». و كثيرا ما كانوا يسألون عن وقتها، و يستعجلون عذابها، تهكما و استهزاء، و كان القرآن فى كل هذه المواقف يجيبهم بالحجة الداحضة التى لا تدع مجالا للانكار ولا للشك، وكان ــ فى سؤالهم عن الوقت ــ يرد عليهم بأن علمه مما استأثر الله به، ولايطلع عليه أحد من خلقه، ومن ذلك ما جاء فى هذا الربع: «اليه يرد علم الساعة»، و العبارة واضحة فى أن علم الساعة لايعلمه أحد سواه. و قد ضمت الآية اليه بعض الأحداث الكونية التى تأخذ حكمه، و هم بأنفسهم يعترفون بأنه لايعلمها أحد سواه: «وما تخرج من ثمرات من أكمامها (أوعيتها) و ما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه». و قد جاء ذلك المعنى فى كثير من الآيات: «و يقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين». «قل انما العلم عند الله وانما أنا نذير مبين». «يسألونك عن الساعة أيان مرساها، قل إنما علمها عند ربى».

الحكمة فى اخفاء الساعة

والحكمة فى اخفاء الساعة هى الحكمة فى اخفاء الآجال، وهى الحكمة فى اخفاء الأحداث والنوازل، فان الانسان لو علم بها لحارت قواه، و انسد أمامه باب الأمل، وحيل بينه و بين العمل، وصار فى حالة تشبه القهر والالجاء. و بعد أن أوضحت لهم الآيات شأن الساعة، أخذت بهم الى التذكير بما ينفعهم، فذكرت لهم يوم ينادون: أين الشركاء الذين كانوا يتخذونهم أولياء من دون الله، وما

يجيبون به عن هذا السؤال، يتبرأون منهم، و يسجلون على أنفسهم أن أحدا منهم لم يشهد لهؤلاء بالعبودية، و لابالولاية: «وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل و ظنوا ما لهم من محيص»، و هذا نوع من الحيرة والتردد، يلازمهم فى الآخرة، كما كان يلازمهم فى الدنيا..

الايمان مبعث الشكر والصبر

ومن هنا تذكر الآيات ان الانسان الذى لم يعتصم بالايمان مبعث الشكر على النعماء، و مبعث الصبر على الضراء، تتردد مواقفه فى الخير والشر و النعمة و النقمة، بين الفرح و البطر، و الهلع والجزع، بين الالتجاء الى ربه فى وقت الشدة، و نسيانه وقت الرخاء، بين الرضا عند الاكرام والانعام، واليأس والقنوط عند التقتير والابتلاء، بين دعاء ربه واستغاثته، والاعراض عنه صلفا وكبرا، وفى تلك الأحوال النفسية، التى تحللها البشرية الحيوانية، تقول سورتنا: «لايسأم الانسان من دعاء الخير، وان مسه الشر فيؤس قنوط، ولئن اذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى، و ما أظن الساعة قائمة، و لئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى». «واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه، واذا مسه الشر فذو دعاء عريض». وكثيراً ما أكد القرآن هذه النفسية التى يحملها القلب الذى لم يعتصم بالايمان بالله: «فلما نجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق». «ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى، انه لفرح فخور».

أما العلاج فهو ما جاء فى قوله تعالى: «الا الذين صبروا و عملوا الصالحات، أولئك لهم مغفرة و أجر كبير». و فى قوله: «ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين».

ثم تختم السورة بأن انكارهم للحق قبل النظر و التفكير ــ وهو على الاقل يحتمل أن يكون من عند الله ــ ليس فى نظر العقلاء الا ضلالا و فسادا ليس بعدهما من ضلال و لافساد: «أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد؟».

و بأن الأدلة على حقية القرآن، و أنه من عند الله، لا تقف عند هذا الحد فيما تجلى لهم من أسرار الكون و خصائصه، و عجائب الله وتصاريفه، بل ستتضح،

وسيرونها فترة بعد فترة، وطورا بعد طور، كلما تقدمت مدارك الانسان وخاض غمار الكون فعرف خواصه، وسنن الله فيه، فى الآفاق والأنفس: «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»، صنع ربك الشهيد على كل شيء وهم فى مرية من لقائه، انه بكل شيء محيط.

سورة الشورى

الربع الأول:

* هذه هى السورة الثالثة من السور السبع، التى عرفت فى القرآن الكريم باسم الحواميم، وهى تشارك زميلاتها فى الهدف والمنهاج، فهى تؤكد أن القرآن ما هو الا تنزيل من الله الجامع لصفات الجلال والجمال، والذى خضعت له الكائنات «الله العزيز الحكيم»، «وهو العلى العظيم» وانه ليس الا وحيا أوحى به الله الى رسوله، لينذر الأقوام الذين فسدت فطرهم، واتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم من دونه، و هو الولى الذى لا ولى سواه: «وهو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير» ..

وأرشدت السورة مع هذا كله الى أن وحى الله الى عباده حقيقة ثابتة، أخذت حظها من الوجود بالنسبة لمحمد، و بالنسبة لاخوانه السابقين، فليس الوحى شأنا خاصا به، ولا هو بدعا من الرسل: «كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم». «وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها».

الوحى روح

ثم تصف الوحى بأنه روح يحيى القلوب الميتة، ويهدى الى صراط مستقيم، وأنه فضل من الله على محمد، وأن حالة محمد قاطعة فى ان القرآن ليس

---

* ــ الآيات من ١ الى آخر الآية ٢٦ *

من عنده وانما هو من عندالله: «وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان، ولكن جعلناه نورانهدى به من نشاء من عبادنا، وانك لتهدى الى صراط مستقيم».

ثم تقرر السورة أن الوحى من لوازم حكمة الله، ومتناول قدرته التى ظهرت آثارها فى الخلق والرزق: «فاطر السموات والأرض» «له مقاليد السموات والأرض».

وحدة دين الله

ثم تبرز السورة حقيقة ضل فيها الناس بغيا وعدوانا، فذهب فريق الى انكارها، وفريق الى الايمان بها لبعض الرسل دون بعض. تلك الحقيقة هى أن الدين الذى أوحى الله به الى محمد هو الدين الذى أوحى به الى نوح، والى ابراهيم وموسى وعيسى، و وصاهم باقامته ودعوة الناس اليه، وعدم التفرق فيه، وقامت فيه حجة كل رسول على قومه، ولكن الناس كبر عليهم، حقدا وحسدا، أن يؤمنوا بتلك الحقيقة المتحدة، فأنكروها، أو فرقوها، وزعموا ان الأديان تتعدد بتعدد الرسل، ان لكل دين أصولا وأتباعا، وأخذوا باسم الدين يتحاربون و يتسافكون، والدين منهم برىء، والله من ورائهم محيط، فدين الله واحد، وانكاره من أحد الأنبياء انكار من جميعهم..

وقد عرض القرآن كثيرا فى مكيه ومدنيه لتقرير الوحدة الدينية، وقرر الايمان بكل الرسل و بكل الكتب، وجاءت فى سورتنا «الشورى» واضحة جلية: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا و الذى أوحينا اليك، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه».

رسم منهاج الدعوة

ثم تتجه السورة بعد تقرير هذه الحقيقة الى الرسول عليه الصلاة والسلام، واضع اللبنة الأخيرة من هذا البناء الالهى، المكمل لشرائع الله، على حسب استعداد خلق الله. تتجه اليه عليه الصلاة والسلام، فترسم له منهاجا للدعوة غاية فى القوة،

منهاجا يزيد المؤمنين ايمانا على ايمان، و يزيد المعاندين المغرقين رجسا على رجس، منهاجا يتكون من عشر فقرات كانت عدته فى الهجرة، وعدته فى الدعوة، وعدته فى الوصول الى الغاية: «فلذلك فادع، واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم. لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا و بينكم، الله يجمع بيننا، واليه المصير».

انتصار الحق

ثم تطمئن السورة بعد ذلك دعاة الحق، الذين يلتزمون هذا المنهاج، بأن معارضة الجاحدين لتلك الحقيقة، المشوهين لها ــ بعد أن أخذت الى القلوب الحية سبيلها ــ معارضة ضائعة فاشلة: «والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له، حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد».

فالحق متى أخذ مكانا ما، سرت روحه، وانتشر نوره، وسار بقوته حتى يعمل عمله فى النفوس دون حرب ولا نضال وهكذا انتشر الاسلام عن طريق السياحة، وعن طريق التجارة، وعن طريق الخبر، دون حرب ولا نضال، ولايزال يغزو القلوب، وتتفتح له الأفئدة دون اكراه أو الجاء..

ثم أخذت الآيات فى تبكيتهم على انكار البعث، واتخاذ غير الله أولياء مع ظهور الآيات والدلائل، وتفتح لهم باب الرجاء فى العفو والمغفرة اذا هم أقبلوا عليه، وخلعوا أنفسهم مما هم فيه، وآمنوا بما أنزل الله: «وهو الذى يقبل التوبة عن عباده و يعفو عن السيئات و يعلم ما تفعلون، و يستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات و يزيدهم من فضله، والكافرون لهم عذاب شديد».

الربع الثانى:

المؤمنون لا تفتنهم الدنيا

• جاء فى الربع السابق، ان الله يجيب حاجة الذين آمنوا و يزيدهم من

• الآيات من ٢٧ الى آخر السورة.

فضله وان للكافرين عذابا شديدا، ومع ذلك فقد كان الكافرون فى بسطة من الرزق وسعة من العيش، والمؤمنون على عكس ذلك، وقد يكون هذا هو المشاهد فى جل الأزمان ان لم يكن فى كلها ..

وفى هذا الربع تكشف الآيات عن شأن فى الانسان، يرجع هذا الشأن الى انه اذا كثر ماله وجاهه شغل به عن مقومات نفسه و روحه، وكثيرا ما يندفع الى البطر والطغيان، و يتعرض بذلك الى عاقبة الطغاة من الحرمان المطلق، والعذاب الأليم، فكان من الحكمة الوقوف بالمؤمن ــ فيما يجر الى الطغيان ــ عند حد القصد والاعتدال، وهو فيما يقوم بالحاجة، ويحقق الكمال الذى لا يؤدى الى الطغيان.

حكمة فى بسط الرزق وقبضه

ومن هنا نرى أن المؤمنين، فى الأعم الأغلب، أقل من غيرهم فى متعة الحياة الدنيا وزينتها، رحمة بهم وحرصا عليهم ولا كذلك الذين جحدت قلوبهم، واستولت الدنيا على نفوسهم: «ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة، ومعارج عليها يظهرون، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون، وزخرفا، وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين».

بهذا طمأن الله المؤمنين، قرر انه لو بسط الرزق لهم، كما بسط لغيرهم، لمالوا الى الشهوات وانحرفوا عن الطريق المستقيم، وهو لذلك يمد اليهم يده بالقدر الذى يعلم انه يقوم بحاجتهم وعزتهم ولا يطغيهم، وليس ذلك عجزا عن أن يمنحهم كما يمنح غيرهم، ولا بخلا عليهم بما لم يبخل به على غيرهم فهو القادر على العطاء لغير حد، وهو الذى بيده أسباب الرزق وهو الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، فهو الذى ينزل الغيث، وهو الذى خلق السموات والأرض وسخرهما للانسان، و بث فيها من كل دابة، وهو الذى وفقهم الى صنع السفن واجرائها فى البحار، وكل ذلك ليس الا متاع الحياة الدنيا، لا يحب أن يقف عنده للمؤمنين. وانما الذى يحبه لهم هو المتاع الباقى الذى لا ينفد، والذى لا يحصل عليه الا من جمع خلال الخير، ولم يربط قلبه بالمتاع الزائل، بل جعل همه الايمان بربه، والتوكل عليه، وتطهير باطنه

وظاهره من الاثم والفواحش، وانقياده النفسى لمولاه، وأداء حقه بالصلاة الخاشعة، وحق اخوانه الفقراء بالزكاة المطهرة. ثم عرف لنفسه عزة المؤمنين، ولم يخضع لبغى ولا عدوان، وانما انتصر لنفسه دون اسراف ولا طغيان: «وجزاء سيئة سيئة مثلها». «انما السبيل على الذين يظلمون الناس و يبغون فى الأرض بغير الحق».

أجملت الآيات بهذا صفات المرضيين عند الله، وهى كلها صفات تتصل بتقوية الجانب المادى عن طريق القوة فى الجانب الروحى، والذى يجدر التنبيه اليه ان الله ذكر بين تلك الصفات مبدأ «الشورى». وأشار الى انه شأن المؤمنين: «والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة، وأمرهم شورى بينهم، ومما رزقناهم ينفقون».

مكانة الشورى فى الاسلام

وضعه بين اقامة الصلاة والانفاق من الرزق فى سبيل الله، وسميت السورة بسورة «الشورى». وكان فى هذا وذاك أبلغ دلالة على مكانة الشورى فى شريعة القرآن، وحسبها أنها عنصر من عناصر الشخصية الايمانية الحقة، نظمت فى عقد حياته طهارة القلب بالايمان والتوكل، وطهارة الجوارح من الاثم والفواحش، ومراقبة الله باقامة الصلاة والانفاق فى سبيله، والانتصار على البغى والعدوان.

و بعنصر الشورى قضى الاسلام على عدو الانسانية الفاضلة، وهو الاستبداد بالرأى واحتكار التشريع والتصريف والادارة، وسلب أهل الرأى والكفايات حق ابداء رأيهم، وآثار كفاياتهم. والقرآن لا يريد من الشورى ــ حين يضعها هذا الوضع ــ هذه الصورة الهزيلة التى يتواضع عليها أرباب البغى والاحتكار، و يتخذونها ستارا للطغيان، وسلب الحقوق، وانما يريدها حقيقة نقية بريئة مما يكدر صفوها، و يفقد خيرها..

و بعد أن تعرض الآيات شيئا من خلال المجادلين فى آيات الله على النحو الذى عهد كثيرا فى القرآن عامة، وفى هذه السور السبع خاصة، توجه خطاب الدعوة والتحذير الى الناس جميعا: «استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير» وتقرر للنبى صلى الله عليه

وسلم ما به يهدأ روعه ، و يطمئن قلبه ، تقرر له مهمته ، وانه ليس عليه شيء من تبعة كفر الكافرين، واعراض المعرضين. «فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ».

ثم تؤكد أخيراً ان الله قد جعل له القرآن نورا يهدى به الى صراط مستقيم. «صراط الله الذى له ما فى السموات و ما فى الأرض الا الى الله تصير الأمور».

سورة الملك

سورة الملك هى أول سورة من سور الجزء التاسع والعشرين من القرآن الكريم، والجزء كله من القسم المكى الذى نزل فى أول أطوار الدعوة تقريرا لأصولها الثلاثة: عقيدة التوحيد، وعقيدة الرسالة المحمدية، وعقيدة البعث والجزاء.

والله ذو الفضل العظيم

فى القرآن الكريم سورتان افتتحهما الله بتمجيده وتعظيمه، وعبر عن ذلك بكلمة «تبارك» الدالة على الاختصاص بمعانى السمو المطلق فى الذات والصفات وبمعانى الكثرة والزيادة فى الفضل والاحسان، ولفضل الله على عباده مظهران:

هذا الكون الذى خلقه وأبدعه وأودع فيه من الأسرار والمنافع ما تقف العقول دون اكتناهه والاحاطة به.

وهذا الكتاب المتلو الذى ختم الله به رسالاته وأنزله على عبده محمد صلى الله عليه و سلم، يوجه به العقل البشرى الى معرفة الحق فى الوجود، والى خوض غمار الكون والتنقيب عن أسراره ومنافعه.

فهما كتابان:

كتاب صامت ينظر فيه الانسان فيعرف و يؤمن و ينتفع...

وكتاب متلو يقرؤه و يتدبره فينبه الى ما فى كتاب الكون من آيات وعجائب ومستودعات هى للانسان مسخرات.

وبهذين الكتابين، الصامت والمتلو، تجلت آثار ربوبيته للعالم، مادية حسية، وروحية عقلية، وقد جاءت أول كلمة فى الكتاب المتلو «الحمد لله رب

العالمين» تعبيرا صادقا عن هذه الحقيقة.

وبهذين الكتابين كمل انعام الله على الانسان، وعظم فضله واتسع احسانه، وبهما هيىء له أن يصل الى كماله المادى عن طريق الانتفاع بما سخر له فى كتاب الكون، والى كماله الروحى عن طريق ما أرشد اليه كتاب الوحى فى العقيدة والسلوك.

* * *

وقد أنزل ــ فى لفت الأنظار الى الكتاب المتلو، وتقرير أنه الفاصل بين الحق والباطل ــ سورة الفرقان بكلمة التمجيد والتعظيم «تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا». وأنزل ــ فى لفت الأنظار الى الكتاب الكونى مظهر الربوبية المادية ــ سورة الملك بتلك الكلمة نفسها «تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير». ثم ساقت السورة جملة من مظاهر سلطانه وقدرته وتفرده بالملك والتدبير فى الانسان، وفيما يحيط به من عالم علوى وسفلي، فذكرت ان الموت والحياة يتواردان على الانسان ليظهر بهما اتجاهه و يعرف سلوكه، وهل هو من الشاكرين لنعمة الحياة، المقدرين لرهبة الموت، أو هو من الكافرين بنعمة الحياة، اللاهين عن عاقبة الموت «ليبلوكم أيكم أحسن عملا» وذكرت فى العالم العلوى، انه خلق سبع سموات هى مدارات النجوم السيارة التى كانت معروفة للعالم إذ ذاك، يعلو بعضها بعضا، هى غاية فى الاحكام والاتقان، لا يرى فيها شيء من الخلل مهما تكرر النظر اليها، وتردد البحث فيها، كيف وهى خاضعة لناموس الهى ثابت، لا تشذ ذرة فيها عن سلطانه الا اذا شاء واضعه وممسكه..

نظام محكم

ثم أرشدت الى ما فى هذا النظام من وجوه المصالح التى تعود على العباد بالنفع العام، فهى زينة بمصابيحها، تتمتع النفس بجمالها، وهى مناريهتدى به الانسان فى ظلمات البر والبحر، وهى قذائف حق يرمى بها الشياطين، الذين يعملون جهدهم على اخراج الناس من نور الايمان الى ظلمة الكفر «الذى خلق سبع سموات طباقا، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت». «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين، واعتدنا لهم عذاب السعير».

ثم تصف السورة هذه النار التى أعدت للمفسدين **بجملة أوصاف**، تدل على شدتها، وتغيظها منهم وحقدها عليهم، كما تدل على تأنيب خزنتها لهم، وتهكمهم بهم، وعلى اعترافهم أنفسهم بذنوبهم، واهمال عقولهم، وزيادة فى فجيعتهم ترشد السورة بازاء ذلك الى فضل الله على المؤمنين، واكرامه اياهم، واقرأ فى ذلك: «اذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور..» الى آخر الآيات. فتذكر من مظاهر سلطانه ونعمته فى العالم السفلى تهيئة الأرض للسير والزراعة، والتقلب فى جميع أرجائها، تنذرهم بالقدرة على تغيير تلك المعالم الأرضية بالخسف والزلازل، و بارسال الرياح التى تقذفهم بالأحجار، فتكدر عليهم صفو الحياة..

* * *

ثم تلفت نظرهم الى آية فذة فيما يرون من الطير، وهو يحلق فى الجو باسطا أجنحته، ثم يقبضها وليس لها من حافظ سوى قدرة الله المنبعثة عن رحمته. «ما يمسكهن الا الرحمن». ثم ينكر عليهم، أن تخطر فى نفوسهم بعد تلك الدلائل الواضحة، ان لهم من دون الله من ينقذهم أو يرزقهم: «أمن هذا الذى يرزقكم ان أمسك رزقه؟..» ثم يحاكمهم الى العقل والضمير: «أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم؟..»

نعم تستوجب الشكر

ثم بعد أن تمتن عليهم بنعمة الخلق ونعمة السمع والبصر والأفئدة، تلك النعم التى كفروا بها وطمسوها على أنفسهم، فلم يدركوا بها حقا، ولم يستعملوها فى أهدافها، تختم السورة بذكر المبدأ والمعاد، ذلكم المعاد الذى يستبعدونه و يستهزئون به كلما ذكر لهم، و يقولون: «متى هذا الوعد ان كنتم صادقين؟..»، وتلقن النبى صلى الله عليه و سلم حجته عليهم: «قل انما العلم عند الله، وانما أنا نذير مبين» فلا تسألوا عن وقته فانه لا علم لى به، وليس علمه من مهمتى، وانه واقع بكم لا محالة سترونه بأعينكم: «فلما رأوه زلفة (قريبا) سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدعون»..

وأخيرا تقرر ألا طريق للنجاة سوى الايمان بالله والتوكل عليه، فهو صاحب المنع والعطاء: «قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا، فستعلمون من هو فى

ضلال مبين. قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم (مادة حياتكم) غورا (غائرا) فمن يأتيكم بماء معين؟..»

سورة القلم

• كلما كان الناس غرقى فى الشهوات والاهواء، مسلمين أنفسهم للأوهام والأباطيل كانت دعوة الحق فى نظرهم هى دعوة الباطل، ودعوة الخير هى دعوة الشر، ودعوة الجنون. ومن هنا كان أول ما قوبل به النبى صلى الله عليه وسلم حينما دعا قومه الى توحيد الخالق، ونبذ ما هم عليه من الفسوق وعبادة الأصنام: «انك لمجنون» والجنون عند أرباب الشهوات هو التزام جادة الحق والخضوع لواضح البرهان. والعقل عندهم هو مسايرتهم فيما نشأوا عليه و ورثوه من الأهواء والخرافات..

وقد نزلت سورة القلم فى فجر الوحى، تكشف الغطاء عن أعينهم. وتبصرهم بحقيقة محمد وما يدعوهم اليه، فلفتت الأنظار الى أن الذى اجتباه ربه و كرمه وحباه بنعمة الحق والذكاء و الفطنة، ثم بنعمة النبوة والرسالة، ثم بعظم الأجر على القيام بمهمته، ثم كمله بالخلق الذى به يشهدون وله يعرفون، محال أن يكون على ما يصفون.

ثم لم تشأ أن ترسل تلك الحجة المقنعة بنفسها إرسالا، بل أبرزتها فى اطار من القسم بأساس دعوته وهوالعلم القاضى على جهالة النفوس وطغيانها، وذكرته بأهم أدواته من القلم والكتابة و بذلك رجعت به الى أول ما أوحى الله به اليه: «اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم، علم الانسان مالم يعلم». ثم طمأنت الرسول بأنه سيرى بعينه، و يرون هم أيضا بأعينهم أى الفريقين قد زل عقله وحاد عن طريق الحكمة، ووقع فى ضلال الجنون والفتنة، و بذلك كله تبدأ السورة: «ن.

• سورة القلم.

والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون».

ثم تعود السورة وتؤكد للنبي في آخرها ان اتهامهم إياه بالجنون لم يكن الا أثرا من آثار حقدهم عليه حينما سمعوا منه تلك الدعوة التي ستزلزل سلطانهم وتقضي على عزتهم التي تخيلوها، وقد سبق هذا المعنى في أسلوب يصور شدة حنقهم عليه: «وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر و يقولون انه لمجنون».. ثم تنبه الى حقيقة القرآن وما يدعو اليه بما يدل على أن حقيته غاية في الوضوح والظهور، وانه راسخ في النفوس والفطر، وما الدعوة الا تذكير وايقاظ: «وما هو الا ذكر للعالمين». و بذلك تكافل آخر السورة مع أولها في رد تلك الفرية واقتلاع جذورها بالواقع الصحيح.

تحذير

وتتجه السورة فيما بين ذلك الى تحذيره صلى الله عليه وسلم من الميل اليهم واطاعتهم فيما يريدونه عليه. كانوا يساومونه بالمال والسلطان ان هو ترك دعوته، فحذرته اطاعتهم على وجه عام، ثم نفرته من اطاعتهم بخلال سيئة عرف بها بعض زعمائهم، وتأباها طبيعته النقية الطاهرة: «فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون، ولا تطع كل حلاف، مهين، همار، مشاء بنميم، مناع للخير، معتد، أثيم، عتل، بعد ذلك زنيم». ثم تنبه الآيات الى أن سبب كفرهم هو طغيانهم بالمال والبنين، واعتمادهم عليهما، واغترارهم بهما في عزتهم، ثم تؤكد سوء عاقبتهم. وان الله سيشهر بهم، و يفضح أمرهم، و يلصق بهم علامة الذل والصغار بعلو سلطان الحق، وادالة سلطانهم: «سنسمه على الخرطوم».

ابتلاء بالمال والبنين

وتبين لهم ان الأموال والبنين لم تكن الا اختبارا يتبين منه صلاح النفوس وفسادها، وفي سبيل ذلك تذكر لهم قصة اصحاب البستان «الجنة» الذين ضنوا بحق الفقراء فيها، قالوا نحن به أحق وأولى، واتفقوا على جنيها في وقت مبكر غير الوقت الذي كان يعرفه الفقراء: «ولا يستثنون».

و بعد أن بيتوا النية على ذلك. وذهبوا الى جنتهم، وجدوها قد احترقت

وسقطت ثمارها، فوقعوا فى حيرة حتى ظنوا انهم ضلوا طريقها ثم تبين لهم الأمر، وانها هى ولكن قد طاف عليها طائف من ربك وهم نائمون، فوقعوا فى اللوم وأدركوا انهم بنيتهم كانوا ظالمين: «فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، قالوا يا ويلنا انا كنا طاغين». فعادوا الى ربهم ورجوا أن يغفر لهم، وأن يبدلهم خيرا من جنتهم: «انا الى ربنا راغبون». ثم تذيل القصة بأن سنة الله فى هؤلاء المستكبرين، وفى كل أرباب النعم هى سنته فى أصحاب الجنة، ان تداركوا خطأهم غفر الله لهم، وان استمروا على طغيانهم فهذا جزاؤهم فى الدنيا: «ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون».

زعم باطل

ومن عادة المفتونين بأموالهم زعمهم أن لأنفسهم مكانة عند الله أعظم من مكانة الفقراء الذين يهرعون الى استجابة الدعوة فتأخذ السورة فى تبكيتهم على هذا الزعم، وتبين لهم انه زعم ليس لهم فيه مستند، فلا الكتب نصت عليه، ولا العقل يقضى به ولم يأخذوا به عندالله صكا ولا عهدا، واذن فليس لهم من دونه أنصار يحفظونهم من أمره، يوم يشتد الكرب، و يكشف عن ساق «و يدعون الى السجود فلا يستطيعون، خاشعة أبصارهم، ترهقهم ذلة، وقد كانوايدعون الى السجود وهم سالمون». ثم تخفف السورة وطأة تكذيبهم على النبى، تطلب منه أن يفوض أمرهم اليه سبحانه وترشده الى أن الانعام عليهم لم يكن لمكانتهم عنده، وانما كان املاءً و استدراجا، ثم تأمره بالصبر على كيدهم وتحذره الانفعال النفسى مخافة أن يقع فيما وقع فيه أخوه يونس، حينما غضب من قومه وتركهم فابتلاه الله بابتلاع الحوت اياه وفى ذلك تقول السورة:

«أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون». «فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث، سنستدرجهم من حيث لايعلمون» «فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم».

عظة

أما بعد:

فجدير بأرباب الشهوات والأهواء، الحاقدين على الحق وأهله، أن يطهروا

قلوبهم من بواعث الحقد ومكايدة الحق، احتفاظا بانسانيتهم وحرصا على مزاياهم التى كرمهم الله بها.

وجدير بأرباب الأموال الذين يضنون بحق الفقراء فيها ــ وقدأنعم الله بها عليهم ــ أن يتأملوا قصة أصحاب الجنة فيخشوا غيرة الله على عباده الفقراء...

وجدير بأرباب الدعوة الى الحق، الذين يعملون على الخير والصلاح، ألا يقتربوا من المبطلين أرباب الفساد والخلق السيِّئ الذى يمنعون به الخير و يفسدون به ما بين الناس من روابط المحبة والاخاء، عليهم ان ينشئوا أبناءهم على خلال الخير والفضيلة. وجدير بهم أن يتذرعوا فى كل ذلك بالصبر والالتجاء الى الله حتى يسعدوا أنفسهم ومجتمعهم بدعوة الخير والفضيلة، و يركزوا الحق الذى رضيه الله لعباده و بينه فى كتبه، وكلف رسله بتبليغه والدعوة اليه. ونسأل الله التوفيق والهداية..

سورة الحاقة

• وجهت سورة الملك انظار القوم الى بعض ما فى الكون من دلائل الوحدانية وآيات الحكمة والعلم والقدرة، وكشفت سورة القلم عن نعمة الله على محمد، وعن بطلان التهمة التى وجهها اليه القوم حقدا وغيظا، وهى تهمة الجنون، وحذرته ان يلين لهم، أو أن يسارع اليه الغضب فيكون كأخيه يونس بن متى، وضربت لهم الأمثال فى عاقبة الاغترار بالأموال والبنين، ولم يفتها أن تعرض للتهديدات بالبعث، ودار الجزاء.

ثم تجىء سورة الحاقة فتضع الحد الفاصل بين زعمهم وبين دعوة الرسول فيما يختص بالقيامة، فتبدأ بتفخيمها وتعظيم شأنها، وأنها بلغت فى عظم الشأن أن يقف الانسان أمام انبائها وأهوالها مبهوتا متسائلا، بل بلغت مبلغا يتسامى عن الادراك والاحاطة، «الحاقة» ما هى؟ وما أدراك ماهى؟ استفهام يملأ النفس روعة ورعبا، ويقف بها على شاطئ بحر متلاطم الأمواج، لا يدرك البصر أطرافه، فيقف حائرا مضطربا لا يملك سوى أن يقول ماهذا؟ ماهذا؟

معنى الحاقة

وكلمة «الحاقة» ككلمات القارعة والواقعة، والطامة، والصاخة، إعلام بالغلبة على القيامة، ولكل منها دلالة على معنى من معانيها، وأثر من آثارها. فهى حاقة فى ذاتها، وهى حاقة لانبائها، وهى بمقوماتها وأحداثها تقرع القلوب وتصك الأسماع، وهى التى بعد هذا كله كان انكار الأمم السابقة لها سببا فى فسادهم

• سورة الحاقة.

وطغيانهم، وفى التنكيل بهم على وجه لا تزال آثاره وأخباره تنبئ بما أصابهم من الهلاك والدمار، فهذه ثمود، وتلك عاد، وهذا فرعون ومن قبله من الطغاة، وهذه «المؤتفكات» القرى التى ائتفكت وانقلبت على أهلها بفعلتهم الشنعاء: قرى قوم لوط. هؤلاء جميعا أنكروها ولم يعملوا على حسابها، فاندفعوا فى طغيانهم واثمهم، فأتى على الكل ما طوى صفحتهم من الوجود، وجعلهم أثرا من بعد عين «فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية».

وقد ذكرت السورة بالطوفان الذى أخذ قوم نوح، مصرحة بجانب النعمة فيه على العرب وهى حمل أصولهم فى السفينة «إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية». ومعنى هذا انه كان جديرا بالعرب ــ وهم أبناء الذين سلموا من الطوفان ــ أن يذكروا تلك النعمة، و يدعوا العناد والتكذيب: «لنجعلها لكم تذكرة وتعيها اذن واعية».

انذار

و بعد أن فخمت السورة من شأن الساعة ما فخمت، وقدمت للقوم النذر التاريخية التى أصابت المكذبين بها، أخذت تصور أحداثها، من مقدماتها الى نهايتها، فصورت بالنفخ فى الصور انحلال النواميس التى تمسك العالم علو يه وسفليه «وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فيومئذ وقعت الواقعة، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية». ثم تصور عظمة السلطان الالهى بمثل ما يعهده الناس فى سلطان القادرين الأقو ياء: «والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية» وحسبنا أن نؤمن بما تدل عليه العبارة من عظم السلطان على حسب ما يعهده الناس فى دنياهم. أما كيف تقف الملائكة على الأرجاء، أو كيف يحمل العرش، أو من هؤلاء الثمانية؟ أو ما حكمة هذا العدد؟ فهذا كله مما لا ينبغى أن نخوض فى حقيقته، انما هو روعة القضاء الالهى، والحكمة القاهرة.

جزاء المؤمن

ثم تشير الآيات الى العرض على دار القضاء التى تحدد فيها المسؤوليات: «يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية». ثم تشير الى الحكم، فيصدر لفريق

بالنجاة، وعلى آخر بالادانة، وان الأولين يسلمون صك البراءة بأسلوب التكريم: «فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول: هاؤم اقرأوا كتابيه، انى ظننت انى ملاق حسابيه». وأن الآخرين يسلمون صك الادانة ــ على العكس ــ بالاهانة، معترفين بعملهم الكاذب وغرورهم الفاسد: «وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول: ياليتنى لم أوت كتابيه، ولم أدر ماحسابيه، ياليتها كانت القاضية ما أغنى عنى ماليه، هلك عنى سلطانيه». وبعد أن يصدر الحكم يجيء دور التنفيذ فيكون المؤمنون «فى عيشة راضية، فى جنة عالية، قطوفها دانية، كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية».

جزاء المكذب

أما المكذب المجرم فيقال للزبانية: «خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه». ثم تبرز الآيات حيثية الحكم على هذا المجرم: «انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين». وحسب المسكين أن يكون اهمال أمره وعدم الحض على اطعامه عديلا في كتاب الله وقضائه للكفر بالله.

وبعد أن يتم تصوير مراحل القضاء الالهى فى الفصل بين المؤمنين والمكذبين تنتقل السورة الى ما يقرر الحق فى النفوس، وتبرز قسم الله ــ الذى ليس فى حاجة الى القسم ــ بالعالم غائبه وشاهده، على ان القرآن قول رسول كريم، وما هو بقول شاعر، ولا بقول كاهن. وانما هو تنزيل من رب العالمين.

ثم تعبر السورة عن موقف الألوهية بالنسبة لمحمد على فرض انه كما يزعمون قد افترى القرآن على ربه: «ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين». والمعنى لقضينا عليه من ساعته، وقطعنا منه عرق الحياة ثم لا يوجد من يدفع عنه، أو يمنعنا من تنفيذ ارادتنا فيه، وموقفنا منه ــ وقد أفترى علينا ــ هو موقفنا منكم وقد كذبتموه فى رسالته.

أثر القرآن فى النفوس

ثم تختم السورة ببيان أثر القرآن فى النفوس، وانه تذكرة للقلوب الصافية

المستعدة للخير، وحسرة على الأخرى التى أفسدت استعدادها بالشهوات والأهواء: «وانه لتذكرة للمتقين». «وانه لحسرة على الكافرين». ثم تؤكد أن القرآن هو الحق الثابت الذى لا شبهة فيه، وتأمر الرسول بالتزامه واهمال المكذبين، معتصما فى ذلك بتنزيه الله الذى أحاطه بعنايته، والذى لا يرجى ولا يخاف سواه: «وانه لحق اليقين. فسبح باسم ربك العظيم».

سورة المعارج

• كان من أساليب الدعوة الى التوحيد والبعث «الانذار المتكرر للمكذبين بعذاب يوم القيامة، وكثيرا ما طوقهم القرآن ــ على نحو ما رأينا فى السورة السابقة «الحاقة ما الحاقة» ــ بأنباء العذاب الأخروى والمحاكمة أمام القضاء الالهى .

عذاب ليس له دافع

وكان القوم يقابلون هذا الانذار بالانكار والاستهزاء والسخرية، ولقد وصل بهم الأمر فى ذلك الى حد أن استعجلوا العذاب، والى حد أن قال قائلهم «اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم».

وقد جاءت سورة المعارج، بعد ان حققت سورة الحاقة أنباء البعث والقيامة، تكشف عن ضعف عقلية القوم، اذ كانوا يطلبون وقوع العذاب الذى به يوعدون، بدل أن يطلبوا التوفيق الى الايمان فيكون ايمانهم وقاية لهم من ذلك العذاب، وتؤكد لهم ان العذاب واقع بهم ليس من شك، وليس لهم من ينجيهم منه، وليس له من دافع يدفعه عنهم، فمشيئة الله نافذة فيهم، وعذابه لاحق بهم، وترشدهم الى أن طول الأمد، الذى لم يظهر فيه شيء منه، انما هو طول نسبى فى أنظارهم فقط. أما فى واقعه، وفى تدبير الله فهو يوم واحد، هو يوم الدنيا، ومرحلة واحدة، هى مرحلة التدبير لشؤون الدنيا، ذلكم التدبير الذى اقتضت حكمة الله ان يكون بواسطة جند يترددون بينه وبين خلقه على معارج ومصاعد فى يوم كان

• سورة المعارج.

مقداره فى ايامكم خمسين ألف سنة. وما هى الا أن تمضى مرحلة التدبير، ومرحلة التكليف، وتأتى مرحلة الحساب وتحديد المسؤوليات، واذن فلا تكترث يا محمد بموقفهم منك واصبر صبرا جميلا..

العروج

وقد عبرت الآية عن مرحلة التدبير بعروج الملائكة والروح الى الله فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وما علينا الا أن نؤمن بما تدل عليه الآية من قصر أمد الدنيا فى نظام الله، وليس علينا أن نكلف أنفسنا عناء البحث عن حقيقة شيء استأثر الله بعلمه.

و يلتقى هذا التصوير مع مثله فى آية أخرى «و يستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون».

وفى آية ثالثة «يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون».

فهم واجتهاد

والقصد من كل ذلك ان وقع العذاب الذى يسألونه يعقب ذلك اليوم الذى يتردد فيه الملائكة بين الخالق والخلائق، وهو البقية من يوم النشأة الأولى. وقد جاء على لسان الرسول «بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار الى السبابة والوسطى» واختلاف العدد يدل على مجرد الكثرة والمبالغة فى وصف الدنيا بالطول بالنسبة اليهم لا بالنسبة لنظام الله وأيامه، وقد أفصحت السورة عن هذا المعنى «انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا».

من علامات القيامة

ثم أخذت السورة تذكر علامات القيامة فى السماء وانها ستكون كالمهل «مائع الزيت»، وفى الجبال وانها ستكون كالعهن المنفوش «الصوف المنفوش»: وفى الانسان وانه سيتلهى فيه كل امرئ بنفسه: «ولا يسأل حميم حميما». ثم تترقى فى وصف هول ذلك اليهم بأن المجرم يتمنى فيه لو يفتدى من عذابه بأقرب الناس

اليه وأحبهم عنده، ثم تقطع عليه أمل الفداء، وتصور لحوق العذاب به بطمع النار فيه: «انها لظى، نزاعة للشوى، تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى».

ثم تشير الآيات الى الانسان فى انكار الحق ومحبة الجمع والادخار اذا لم يعتصم بهداية الله، وان منشأ ذلك فيه غلبة الهوى عليه «ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا. واذا مسه الخير منوعا».

ثم تذكر ان علاج ذلك الشأن انما هو القيام بحق الله وحق الفقير السائل والمحروم، وفى التصديق بيوم الدين، وفى الخوف من عذاب الله، وفى حفظ الأعراض والأمانات، وفى الشهادات والمحافظة على الصلوات، وانه بتلك الخلال الفاضلة تتحقق عناصر الشخصية الناجية التى يكون أهلها: «فى جنات مكرمون» ولو أن هؤلاء سلكوا هذا السبيل لكان مصيرهم الى النعيم، ولكنهم رفضوا أن يطهروا قلوبهم وأخذوا يسخرون [بالحق][1]، و يفترون على الله، يزعمون لأنفسهم استحقاق الجنة، بل أحقيتهم بها: «أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم. كلا».

ثم تختم السورة بتوعدهم، وتوجيه النبى الى عدم الأكثرات بهم: «فذرهم يخوضوا و يلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون». وعندئذ يكشف لهم عن ساق، وانهم كانوا على باطل، ثم تصف خروجهم من القبور فى ذلك اليوم، مسرعين ملبين دعوة البعث، مقهورين غير مختارين، وتذكرهم فى حالتهم هذه بحالتهم فى دنياهم حينما كانوا يخرجون من بيوتهم متسابقين الى أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله: «يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة، ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون».

---

١ ــ هكذا وردت فى الاصل. والصحيح (من الحق) لقوله تعالى «إن تسخروا منافانا نسخر منكم» و «... لايسخر قوم من قوم... ولانساءٌ من نساء...» الخ. المصحح.

سورة نوح

• قوبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم منذ أن دعا الى توحيد الله وعقيدة البعث بموجة شديدة من الانكار المصبوغ بألوان الاستهزاء والسخرية، وقد اقتضت الحكمة الالهية ان يكون من أساليب الدعوة التذكير بما أصاب الأمم الخالية جزاء الانكار والتكذيب .

وفى هذه السورة يقص الله على نبيه موقف أول رسول بعثه للبشر فدعاهم الى مثل دعوته، وقوبل منهم بمثل ما قوبل به، تثبيتا له على دعوته، وتسلية له فيما يصيبه، وتهديداً لقومه ــ ان استمروا على العناد والاستهزاء ــ بعاقبة أسلافهم حينما استمروا على الكفر والعناد.

وللعرب رابطة خاصة بنوح عليه السلام، وهى رابطة البنوة، ففى التذكير بقصته تهديد لهم بجانب ما كان فيها من النقمة التى أخذت المكذبين، وامتنان عليهم بما كان فيها من النعمة التى أنقذ بها نوح، و من آمن معه، ومنه كان آباؤهم الذين بواسطتهم ظهروا فى الوجود وتكونوا شعوبا وقبائل وانتشروا فى الأرض، والى هذا تشير آية الحاقة: «لما طغى الماء حملناكم فى الجارية».

وقد تكررت فى القرآن بأساليب مختلفة بين الطول والقصر تسلية الرسول وتذكير القوم بقصة نوح عليه السلام. وعنيت هذه السورة المسماة باسمه بأمور:

دعوة نوح وأصولها

أولها: بيان دعوة نوح، وانها ترتكز على أصول ثلاثة:

• سورة نوح.

عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام.

تقوى الله باجتناب المعاصى التى تفسد الأخلاق وتفكك الروابط بين الجماعات.

اطاعة الداعى فيما يأمر به عن ربه.

وهذه الأسس الثلاثة هى دعوة كل رسول جاء بعده، وهى مصاعد الحياة الطيبة تعلو الأمم اذا تمسكت بها، وتسقط اذا انحرفت عنها: «انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم، قال يا قوم انى لكم نذير مبين ان اعبدوا الله واتقوه وأطيعون».

فوائد الدعوة

ثانيها: بيان فوائد هذه الدعوة التى تعود عليهم بخيرى الدنيا والآخرة اذا قبلوها وآمنوا بها. والآيات ترشد الى أنهم ينتفعون بها فى نواح ثلاث:

ناحية الروح، تمحو عنها ما اقترفته من الذنوب «يغفر لكم من ذنوبكم».

ناحية الأجل، فيها يستوفون أجلهم الطبيعى دون أن يعاجلهم العذاب المقدر عليهم اذا استمروا فى الكفر والمعاصى «و يؤخركم الى أجل مسمى».

ناحية الرزق، بفتح أبوابه وتوجيههم نحو العمل فى الحياة، والانتفاع بما سخر لهم فيها: «يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال و بنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا».

سبل الدعوة

ثالثها: أن نوحا سلك معهم فى الدعوة السبل الطبيعية لكل دعوة جديدة أسر وأعلن، وجمع بين الاسرار والاعلان، ومع كل هذا: «جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا».

دعاهم ببيان ما فى الدعوة من الخير الروحى والمادى، ثم دعاهم بلفت الأنظار الى آيات الله ونعمه فى أنفسهم وفى الخلق كله: «مالكم لا ترجون لله وقارا، وقد خلقكم أطوارا. ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل

القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا. والله أنبتكم من الأرض نباتا، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا. والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا».

لفت أنظارهم بعد أن هز عواطفهم الى برهان العقل فنبه الى خلق أنفسهم والاطوار التى مرت بهم، ونبه الى خلق ما يحيط بهم من عالم علوى وسفلى على وجه يكفل لهم خير الدنيا وطيب الحياة.

ومن دقائق الاشارات العلمية فى نظام الكون أن الآيات لم تجعل الشمس فى السموات وهذا يتفق تماما مع ما عرف أخيرا من أن الشمس مركز النظام الشمسى، وأن الكواكب تحف بها، وأن القمر له مركز فيها ومعدود منها: «وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا».

عناد واعراض

رابعها: انه على الرغم من هذه الطرق المختلفة، وتلك البراهين الواضحة، نبذ قوم نوح دعوته، واشتد انكارهم لها، وقد صور نوح اعراضهم، مرة بوصف فى أنفسهم، سدوا آذانهم وتغطوا بثيابهم، ومرة بالشكوى الى الله الذى أرسله بهذه الدعوة، وأشار الى سبب اعراضهم: وهو اتباع الرؤساء المفتونين بالأموال والأولاد: «قال نوح رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا».

ثم كشف عن دعوة الباطل التى خدعهم بها هؤلاء الماكرون: «وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث و يعوق ونسرا».

وهنا أبرز أسماء الآلهة التى عبدوها من دون الله، هى أسماء لتماثيل كواكب اعتقدوا انها منبع الخير، أو أسماء لقوم صالحين أطلقوها على تماثيلهم التى أتخذوها معبودات وآلهة من دون الله، ولعل هذه الفترة كانت مبدأ زلة العقل البشرى فى اتخاذ التماثيل وعبادتها، ومنه انحدر تقديس البشر من الأنبياء والأولياء بما يقدس به خالق البشر. ومن هنا حظر الاسلام صنع التماثيل واقامتها بفكرة التقديس والعبادة، و بذلك اجتث جذور الوثنية، ونعى على المستغيثين المستعينين بغير الله.

عاقبة المكذبين

خامسها: بيان العاقبة التى صار اليها القوم جزاء اعراضهم عن سماع

الحق «مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا». وقد عرضت سورة هود الى حادثة الطوفان التى أغرقت القوم: «واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين». ثم أشارت الآيات الى حكمة الله فى أخذ الجبارين المستكبرين وهى ترجع الى ارادة تطهير العالم من جراثيم الشر والفساد: «انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الافاجرا كفارا».

وازاء هذه العاقبة السيئة التى تقطع على الجبارين حياتهم تشير الآيات الى العاقبة الطيبة لعباده المؤمنين «رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا».

أما بعد:

فتلك قصة نوح كما وردت فى سورة نوح، قصها الله على كفار مكة، وعلى جميع الناس، وهى مثال حى ناطق بسنة الصراع بين الحق والباطل فى كل زمان و مكان، وناطق بأن فساد العقلية البشرية ليس من أصل الطبيعة وانما هو من خداع المستكبرين الماكرين، وناطق بأن الحق مهما طال ركوده لابد أن يعلو صوته و ينتشر فى العالم ضوؤه، و يعم الكون خيره...

وهكذا ستكون عاقبتك يا محمد وعاقبة كل من اهتدى بهديك، وسار على سنتك فى الدعوة الى الحق والى الصراط المستقيم.

سورة الجن

• فطر الناس على ان فى العالم خلقا آخر غير الانسان، يعرفونه بآثاره ولا يرون أشباحه، ولا يعرفون حقيقته، وقد صرحت بذلك جميع الكتب السماوية بعبارات واضحة لا تحتمل التأويل، كما صرحت بالعناوين الخاصة بهذا الخلق، فذكرت الملائكة، وذكرت أعمالهم ومهامهم، ووصفتهم بالطاعة الدائمة، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون ..

الجن والانس

وذكرت الجن وجعلتهم نوعا مقابلا للانسان يندرجان تحت عنوان «الثقلين»، وخاطبتهم وتحدثت عنهم، كما خاطبت الانسان وتحدثت عنه: «يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا. لا تنفذون الا بسلطان فبأى آلاء ربكما تكذبان. يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران». «ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها». «و يوم يحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض و بلغنا أجلنا الذى أجلت لنا. قال النار مثواكم خالدين فيها الا ماشاء الله».

تكليف ومسؤولية

وهكذا نجد القرآن قد أشرك الانس مع الجن فى المسؤولية والمؤاخذة

• سورة الجن.

والمصير، ووضعهما فى اطار واحد، وتحدث عنهما بحديث واحد، وشرع فى وجوههم جميعا حجة واحدة: «يا معشر الجن والانس الم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى و ينذرونكم لقاء يومكم هذا؟؟.. قالوا: شهدنا على أنفسنا، وغرتهم الحياة الدنيا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين».

حقائق ثابتة

واذن فليس فى وجود الجن شك، وليس فى تحميلهم شرائع الله ورسالاته شك، وليس فى مسؤولياتهم ومؤاخذتهم بالتقصير شك، وليس فى استعدادهم لاستماع القرآن وتلقيه وفهمه وتدبره والتأثر به شك، فكل هذا حق لا ريب فيه، ومن لم يؤمن به فليس بمؤمن بالقرآن ولا برسالة السماء وان محاولة تأويل شىء منه تحريف للكلم عن مواضعه، وسلخ للالفاظ عن معانيها، وضيق عطن من المولعين بانكار ما لايدركه الحس..

استجابة الجن للاسلام

هذا وقد قص الله علينا فى موضعين من كتابه استماع نفر من الجن للقرآن، وان هذا الاستماع كان له أثره البالغ فى نفوسهم، صحح عقائدهم فى الله، وطهر نفوسهم من الأوهام والخرافات المتعلقة بهم، وكملهم بالمعارف الصحيحة، واندفعوا به الى انذار قومهم فأرشدوهم الى الحق فى العقيدة، والى الحق فى الرسالة، والى الحق فى علاقتهم بالانس، والى الحق فى معرفتهم الغيب، أجل كل ذلك فى قوله تعالى من سورة الاحقاف: «واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم. يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم، ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين».

وهذه سورة الجن تفصل ما أجملته سورة الاحقاف من مبادئ الخير والفضيلة التى أدركوها من القرآن، وتصحح على لسانهم الأخطاء التى كانوا عليها

وأدركوا الحق فيما مما سمعوا من القرآن.

الجن يتحدثون

ولنصغ اليهم وهم يلقنون عقيدة التوحيد وتنزيه الرب عن اتخاذ الصاحبة والولد: «ولن نشرك بربنا احدا وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا».

ولنصغ اليهم وهم يضيفون فساد عقائدهم الى سفهائهم الذين يكذبون على الله..

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون الى قومهم عمن يعتقدون من الانس ان للجن سلطانا عليهم فيعوذون برجال منهم وضعوا فى نفوسهم ان لهم سلطة استخدام الجن، وسلطة منعهم من أذاهم، وقد درج الناس على هذا الوهم، واستغل به كهنتهم ضعاف العقول منهم باسم العلاج و «التحويطة» وساعدهم على ذلك طائفة من المتسمين بسمة العلم والدين وأيدوهم بحكايات وروايات موضوعة ــ وقد يشاركونهم فى الاستغلال والدجل ــ حتى أفسدوا على الناس عقائدهم وصرفوهم عن العلم النافع والعمل المفيد. فجاء القرآن يقرر فساد ذلك كله على لسان الجن أنفسهم: «وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا».

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون الى قومهم في العقيدة الفاسدة. عقيدة أن الجن يعلمون الغيب، وان اناسا يستخدمونهم فى ذلك فيعلمون منهم ما تسوقه المقادير الالهية من شر فيتقى أو خير فيرتقب. ثم يعلنون أن الغيب لله وحده، وان القرآن قصر علم الغيب على الله فلا يعلمه أحد سواه: «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو». «قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب». «وانا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا».

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون عن قدرة الله، وعن العاقبة الطيبة لمن يؤمن بالله، وعما كان بينهم من الاختلاف فى العقيدة، وعن مصير الجاحدين الظالمين: «وانا منا المسلمون ومنا القاسطون، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا».

توجيهات

ثم تختم السورة ــ بعد حديث الجن الى قومهم بما سمعوا من الحق ــ بجملة

توجيهات للنبي صلى الله عليه وسلم فتأمره أن يتمسك بدعوته، وأن يعلن عجزه وعدم قدرته على الخير أو الشر، وان السلطان عليه وعلى الناس لله وحده، وانه لن يجد من دونه ملجأ يلتجئ اليه، وانه مبلغ لرسالة ربه فقط، وانه لايدرى متى العذاب الذى توعدهم الله به ان لم يؤمنوا وانه من الغيب الذى لا يعلمه الا الله لا يطلع على غيبه أحدا من خلقه الا من ارتضى من رسول فانه يطلعه على ما أراد ثم يحفظه بجنده الالهى حتى يبلغ رسالته: «فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا».

هذه قصة الجن فى استماع القرآن والتأثر به وهداية قومهم اليه، فهل تقف الشهوات والأهواء بالانس دون أن ينتفعوا بالقرآن ــ كما انتفع به الجن ــ وهم من جلدة الرسول، تجمعه و إياهم بيئة واحدة، ورحم واحدة، ونشأة واحدة، وفى الحق ان فى قصة الجن وتأثرهم بالقرآن على هذا النحو هزة عنيفة لانسانية الجاحدين المستكبرين من الانس، وفيها فوق ذلك من العبر ما يلقم الدجالين فى كل عصر ومكان حجر الحق الذى يفتت أمعاءهم و يذهب بكيدهم و يفسد عليهم أمرهم فى التسلط على عقول الضعفاء من الناس فاعتبروا يا أولى الأبصار.

سُورتا المزّمّل والمدّثّر

•ركزت سورة الملك عقيدة التوحيد، وسورة القلم عقيدة الرسالة المحمدية، وسورتا الحاقة والمعارج عقيدة البعث ودار الجزاء، ثم أقامت سورة نوح الحجة التاريخية الواقعية على صحة الدعوة، كما أقامت سورة الجن الحجة البالغة على ما أحدثه القرآن من عظيم الأثر فى نفوس الجن، وانهم فهموه وانتفعوا به وأرشدوا قومهم اليه، و بذلك تركزت الدعوة فى ذاتها، وفى آثارها، ولكن كل ذلك لا يكفى فى تقبل الناس لها وانتفاعهم بها، بل لابد لها مع هذا من لسان بين، يحمله قلب قوى، يدعو اليها و يعمل على نشرها والاقناع بها. وان الحق لابد له من قوة تحمله وتحميه، وهو لايقوم فى ظل الراحة والسكون، ولا فى ظل العزلة والانكماش، وانما يقوم :

أولا: باعداد النفس بتمرينها على تحمل المشاق وتكميلها بالفضائل التى ترسل عليها أشعة الأنوار الالهية فتضىء لها السبل، وتمدها بقوة تقتلع منها بواعث الحيرة والاضطراب، وتزيح من أمامها العقبات..

وثانيا: برسم المنهاج الواضح للدعوة الذى يأخذ بالنفوس من طريق الشر الى طريقها الممهد، وقد جاءت السورتان: «المزمل والمدثر» ترشدان الى ما يجب من هذين الأمرين لينجح الداعى فى دعوته و يقوم بمهمته، والكلمتان معناهما: «المتلفف بالثياب» وقد يكون ذلك اشارة الى حالة حقيقية لجأ اليها النبى فى بعض ظروفه. المتصلة بمفاجأة الوحى له، أو بموقف القوم منه، وقد يكون رمزا لحالة الدعوة والسكون والتفكير العميق فى وسائل الدعوة التى كلفها وعلى كل فالنداء

• سورة المزمل والمدثر.

بهذا الوصف ينهض الهمة، و يوقظ النفس، ويحرك بواعث العمل، و يضاعف التهيؤ لما يلقى من تعليم..

يا أيها المزمل

وقد تضمن النداء الأول: «يا أيها المزمل» نهيه صلى الله عليه وسلم عن الدعة والسكون، كما يكون من شأن المتهيب لعمل لم يعهده، ولا يعرف قدرته عليه، وتضمن ارشاده الى تقوية قلبه عن طريق قيام الليل ومناجاة ربه واستشعار عظمته، فيستمد بها الحول والقوة، والى تلاوة القرآن وتدبر الوحى الذى يلقى عليه تدبرا يملأ روحه ايمانا وقوة، والى مشقة المهمة وصعوبة الدعوة لكى يبذل لها ما تستحق من العناية، ولتهون على نفسه الصعاب حينما تصادفه وتتصل بدعوته، والى توزيع الاعمال على الأوقات، فيقوم فى كل وقت بالعمل الذى يكمل فيه و ينضج، فالليل للعبادة والقراءة والذكر، والنهار للدعوة والتقلب بين الناس للارشاد والتعليم، واقرأ فى ذلك كله قوله تعالى: «يا أيها المزمل، قم الليل الاقليلا» الى قوله: «واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا».

يا أيها المدثر

ثم يجىء النداء الثاني: «يا أيها المدثر» فينزعه مرة أخرى من هموم نفسه وحيرته فى هداية قومه: يطرد عنه اليأس و يوجهه الى العمل ومباشرة المهمة: «قم فأنذر» ثم يجمع له أطراف المهمة فى كلمات قصيرة هى فى عظم معناها وضخامته أشبه بالقنابل الثقيلة تقذف معسكرات الشرك والطغيان، وتبيد جراثيم الفسوق والعصيان: «وربك فكبر» لا يكن فى قلبك مثقال ذرة من خوف غيره أو عظمة سواه، وهذا تقرير لعقيدة التوحيد، وتحرير للعقل من سلطة الوهم: «وثيابك فطهر» وهذا تحرير للنفس من قيود الأخلاق الذميمة.. «والرجز فاهجر» وهو تحرير للجوارح من قيود المعاصى والذنوب. واذا كان الانسان عقلا ونفسا وجسدا، وكان كل فساد أو صلاح منشؤه العقل أو النفس أو الجسد، فتلك ارشادات ثلاثة تطهر القوى الثلاث من كل شر، وتجعلها خالصة لكل خير.

ولما كان ما تضمنه النداءان، من وجوه الاعداد النفسى، ونواحى العمل

فى مهمة الرسالة، يحتاج فى تحققه الى استعانة خاصة وجهاد قوى، جاء عقب كل منهما فى السورتين تخصيص الصبر من بين الاخلاق بالذكر والعناية، فتقول الأولى بعد الارشاد الى وجوه الاعداد «واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا». وتقول الثانية بعد الارشاد الى نواحى العمل: «ولربك فاصبر».

للمكذبين عاقبة سيئة

ثم تأخذ السورتان، كل بأسلوبها الخاص ، فى شد أزره صلى الله عليه وسلم بتهديد المكذبين، و بيان ما أعدلهم عند الله من العاقبة السيئة والعذاب الأليم فتقول الأولى: «وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا، ان لدينا انكالا وجحيما وطعاما ذا غصة و عذابا أليما، يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا».. الى أن تقول: «فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا» وتقول الثانية: «فاذا نقر فى الناقور، فذلك يومئذ يوم عسير، على الكافرين غير يسير، ذرنى ومن خلقت وحيدا، وجعلت له مالا ممدودا، و بنين شهودا ومهدت له تمهيدا، ثم يطمع أن أزيد، كلا، انه كان لآياتنا عنيدا، سأرهقه صعودا».

وصف الجحيم

ثم تأخذ فى وصف الجحيم بما يذيب النفوس و يبدد نياط القلوب، وتختم الأولى «المزمل» بارشاد المؤمنين، دعاة الحق، والمؤمنين بالحق، الى ما يحفظ لهم عز الحياة، وسعادة الآخرة: «وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خير وأعظم أجرا». وتختم الثانية بتسجيل نكبة المعرضين عن الحق واعترافهم على أنفسهم بالكفر والطغيان، والقسوة على الفقراء والمساكين: «قالوا لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين، وكنا نكذب بيوم الدين، حتى أتانا اليقين، فما تنفعهم شفاعة الشافعين..» الى أن تقول: «كلا بل لا يخافون الآخرة، كلا إنه تذكرة، فمن شاء ذكره وما يذكرون الا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة».

أما بعد، فهاتان سورتا الاعداد والعمل، فمن شاء أن يصل الى السعادة فليعد نفسه بما رسمت سورة المزمل، وليعمل على أساس مما رسمت سورة المدثر،

وليتذرع بالصبر والاخلاص، وليسر بنفسه وأمته فى ضوء تلك التعاليم المنبعثة عن الرب، العليم بطيات النفوس، الرحيم بخلقه، والله للعاملين المخلصين نعم المولى ونعم النصير.

سورة القيامة

* كانت عقيدة البعث من أبعد ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم في نظر القوم وقد قوبلت منهم بشدة الانكار المصبوغ بألوان الاستهزاء والسخرية، وكثيرا ما كانوا يلقون بكلمات يزعمون انها براهين تحيل وجودها، وتمنع التصديق بها: «أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديداً؟». «من يحيى العظام وهي رميم؟» و « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين» وكان القرآن يلاحقهم في ذلك بانذاراته المتكررة، وتأكيداته المتعددة، و براهينه الحية الواضحة، حتى لقد جاء فيه جملة سور سميت بأسمائها وأسماء مقدماتها وأهوالها، وكانت عقيدة البعث أبرز ما عنيت بتأكيده هذه السور، ففيه الواقعة، والغاشية، والحاقة، والقارعة، وفيه التكوير، والانفطار، والانشقاق، والزلزلة، ولا نكاد نجد بعد ذلك سورة من القرآن الا قد عرضت لتلك العقيدة في ناحية من نواحيها .

ثمرة الايمان بالجزاء

والواقع ان الايمان بالجزاء أقوى ما يغرس في النفس الايمان بالحق، والايمان بالفضائل، و يبعث فيها داعية الخير وطاردة الشر. وهذه سورة القيامة تجيء بعد سورة المدثر التي سجلت على المجرمين ما سيكون من اعترافهم يوم البعث على أنفسهم بالكفر والجحود، فتؤكد أمر القيامة، وأن تحققها، في وقتها الذي يعلمه الله، أمر بين لايحتاج الى قسم: «لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوامة».

---

* سورة القيامة.

واذا كان من سنة الله فى القرآن انه لايقسم فى موضع الحاجة الى القسم الا بما عظم خطره فى مخلوقاته، ودلت العبارة على أن القيامة لا يحتاج فى ثبوتها الى قسم بها عليها، ولا بالنفس اللوامة عليها؛ كان فى ذلك ارشاد الى أن القيامة وكذا النفس اللوامة من أعظم مخلوقاته خطرا، وأقواها أثرا، وأظهرها وجودا، وفى هذا تقرير لتحققها ووجودها.

النفس اللوامة

وفى ضم القسم بالنفس اللوامة الى القسم بيوم القيامة ارشاد آخر الى مكانة هذه النفس التى لا تترك صاحبها عند درجة يلام عليها، بل لا تتركه عند درجة فوقها درجات من الكمال، فهى على الدوام توثبه على الدرجات الدنيا، وتدفعه الى الدرجات العلى، حتى يعتلى أشرف المنازل فى هذا اليوم الخطير..

ابطال دواعى الانكار

وبعد هذا الاستدلال المملوء بالوان من التأكيدات ليوم القيامة، تأخذ السورة فى ابراز ما احتوت عليه نفس الانسان الجاحد من الظنون والأوهام التى زينت له الانكار والجحود «أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه؟». ثم تقذف هذا الحسبان الكاذب بما يقتلعه من جذوره: «بلى قادرين على أن نسوى بنانه». قادرين على جمع عظامه، واعادة تركيبه الى آخر ما يبلغ به حدالكمال الخلق، وهو تسوية البنان والأطراف..

ثم تبرز السورة شأنا آخر ــ كان له أثره فى انكار البعث والقيامة ــ غير ظن العجز عن الاعادة: تغلبت على الانسان شهوته، واندفع بها فى لذته فنسى البعث بل وأنكره ليفك نفسه من قيوده فيكون حرا طليقا فيما يشتهى: «بل يريد الانسان ليفجر أمامه». فلم ينكره نزولا عن برهان، وانما هو محاولة التفلت من سلطان التكاليف والمؤاخذة، ولقد أبعد فى ذلك حتى سأل سؤال المستهزئين: «يسأل أيان يوم القيامة» وهنا تصف له الآيات ما سينزل به من الأهوال التى تحيط به، والتى لا يجد له منها ملجأ ينقذه ويخلصه: «فاذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ: أين المفر؟.. كلا لا وزر، الى ربك

يومئذ المستقر».

وهنا تقدم له صحف أعماله ونياته فينبأ بما قدم وأخر، بل و تكون نفسه بصيرة وشاهدة عليه، وعندئذ يحاول أن يخلص من صحيفته، فيعجل بقراءتها لتطوى و يفرغ من حسابه وموقف خزيه، فيعلن بأن الأمر فى ذلك ليس اليه وانما هو الى الله صاحب الشأن فى عرض الأعمال واظهار السيئات: «لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه».

ثم تبرز السورة من نفس الانسان داعيا آخر لانكار البعث، وهو محبة الدنيا التى تطمس عليه جانب الآخرة: «بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة»..

وهنا تعرض السورة ان الناس فى هذا الموقف أبرار وفجار: «وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة» ثم تحذرهم الركون الى الدنيا وتصور لهم أهوال الاحتضار حينما تبلغ الروح الحلقوم، و يعجز الطبيب والكاهن. و يرى مشهد الفراق: «والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق». وهنا يسمع أسباب أحزانه «فلا صدق ولا صلى، ولكن كذب وتولى، ثم ذهب الى أهله يتمطى» يختال و يتكبر.

الجزاء مقتضى الحكمة والعدل

ثم تختم السورة بتقرير القدرة على الاعادة، وانها من نوع القدرة على الخلق الأول، وان الاعادة لتحديد المسؤوليات، والجزاء على الأعمال أثر من آثار العناية بالانسان وتكريمه، وانه لا يمكن ــ وقد أكرمه الله ونفحه بالعقل والشرائع ــ أن يتركه سدى وهملا كالعجماوات دون حساب ولا جزاء: رسم له شرائعه، ووهبه قوى العمل، وقوى التسلط على ما خلق، وأنشأه عاملا قويا مفكرا من موهبة قذرة، ثم أحاطه ــ بعنايته ــ بما ينعم به فى حياته ويحفظ له ذكراه من بعد مماته، فلا بدله اذن من يوم يسأل فيه عن النعيم، و يتجلى فيه بالنسبة للمحسن والمسىء فضل الله وعدله، وهو ذلكم اليوم الموعود: «أيحسب الانسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من منى يمنى، ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى».

آمنت بالله العظيم..

والحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الكريم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

VETVS & NOVVM TESTAMENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

Princeton University Library
32101 057498865
BP130
.4
.S47
1985

منظمة الاعلام الاسلامي
معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية
طهران- ص.ب- ١٤١٥٥/١٣١٣
الجمهورية الاسلامية في ايران

السعر : ٢٠٠ ريال